

جَنَّةُ الشُّوكِ

جَنَّةُ الشُّوكِ

طه حسين

الطبعة الثانية عشرة





طباعة وتوزيع دار المعارف

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
المؤلف ولا تعبر عن وجهة نظر الناشر

تصميم الغلاف: سارة شريف

تنفيذ المتن والغلاف

بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات

دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

<http://gate.dar-elmarf.com>

« لَا يَرَانِي اللَّهُ أَزْعَى رَوْضَةً
سَهْلَةً الْأَكْتَفِ مَنْ شَاءَ رَعَاهَا »

موفق الدين الأربلي

« إِنِّي أَبْغَضُ الشَّعَرَ الْيَسِيرَ ، وَأَكْرَهُ الطَّرِيقَ الْمَطْرُوقَةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا
كُلُّ إِنْسَانٍ ، وَلَا أَشْرِبُ مِنَ الْحَوْضِ الْمُبَاحِ ، وَأَعَافِ مَا تَبْتَذِلُهُ الدِّهْمَاءُ »
كَلِمَاتُكَ

تقدمة

هذا لون من ألوان القول لم يطرقه أدباؤنا المعاصرون ؛ لأنهم لم يلتفتوا إليه ، أو لأنهم لم يحفلوا به ، مع أنه من أشد فنون القول ملاءمة لهذا العصر الذى نعيش فيه . فنحن نعيش فى عصر انتقال كما يقال لنا منذ أخذنا نعرف الحياة . وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأى واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة . وهذا كله يدفع إلى النقد ، ويحمل على العناية بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد إليه ، وعلى الشر لتتكب سبيله ، وإظهار ما يحسن وما لا يحسن فى صور قوية أخاذة ، عميقة الأثر فى النفوس ، شديدة الاستهواء للذوق ، عظيمة الحظ من ملاءمة الطبع .

ونحن نعيش فى عصر ما زلنا نسمع أنه عصر السرعة ، بقصر فيه الوقت مهما يكن طويلا عما نحتاج إلى أن تنهض به من الأعباء التى لم تكثر ولم تثقل على الناس فى عصر من العصور كما تكثر وتثقل وتنوع وتزدحم فى هذه الأيام . وهذا كله يحمل على أن تؤثر الإيجاز على الإطناب ونقص إلى ما يلائم وقتنا القصير وعملنا الكثير وهذه اللحظات التى يتاح لنا فيها شئ من الفراغ للاستمتاع بلذات الأدب الخالص والفن الرفيع .

وليس من شك فى أن حياتنا الحديثة قد وجدت من أدبنا الحديث مرآة صادقة تصورها أحسن التصوير وأدقه وأعظمه حظاً من إمتاع العقل

وإرضاء الذوق وملاءمة الطبع . فقد عرفنا المقالة منذ أواخر القرن الماضى ، وعرفنا أنواعها المختلفة وفنونها المتباينة ومحاولاتها الناجحة لتصوير ما نحتاج إلى أن يصوّر لنا من ضروب الحياة التى نحيّاها ، ناقدة مرة ومقرّظة مرة أخرى ، معلّمة مرة ومعنية بالإمتاع الفنى مرة أخرى ، متناولة للسياسة على اختلاف ألوانها ، وللحياة الاجتماعية على تباين أشكالها ، وللحياة العقلية على تنوع فروعها .

ثم عرفنا القصة التى تقصد تارة إلى الأدب الخالص ، وتارة إلى تصوير الحياة المصرية أو الحياة الإنسانية بوجه عام . وعرفنا الكتب التى يهجم أصحابها فيها على ضرب من ضروب الحياة ينقدونه نقداً مباشراً ، أو على لون من ألوان الحياة يجيبونه إلى الناس ويدعونهم إليه ، أو على مسألة من مسائل العلم ، أو قضية من قضايا الفلسفة ، أو مذهب من مذاهب الأخلاق ، أو اتجاه من اتجاهات الفن والأدب . كل ذلك وأكثر من ذلك قد ظهر به أدبنا الحديث ، وانتهى منه إلى حظ لا بأس به . ولكنه مهما يبلغ من الرقى ومهما يعظم حظه من التنوع والاختلاف والخصب فلن يغنى عن هذا الفن الجديد القديم الذى ينقد فى سرعة وخفة ودقة وإيجاز ، ويحاول مع هذا كله أن يكون كلاماً مختاراً يروق بلفظه ومعناه كما يروق بصيغته وأسلوبه ، ويصلح من أجل هذا كله لأن يكون أدباً يجد القارئ فيه ما يجب أن يجد فى الأدب من لذة العقل والذوق والقلب والأذن واللسان جميعاً .

وقد قلت إن هذا الفن جديد قديم . ولا بد من أن أفسر هذه العبارة التى تظهر متناقضة . وهى على ذلك صادقة كل الصدق ملائمة كل

الملاءمة لحقائق التاريخ الأدبي العام من جهة ، ولحقائق التاريخ الأدبي العربي من جهة أخرى . وأول حقيقة يجب تقريرها هي أن هذا الفن كغيره من فنون القول قد نشأ منظوماً لا منشوراً ؛ فهو منذ نشأته الأولى في الأدب اليوناني مذهب من مذاهب الشعر ولون من ألوانه ، نشأ يسيراً ضئيلاً ، ثم أخذ أمره يعظم شيئاً فشيئاً حتى سيطر أو كاد يسيطر على الأدب اليوناني في الإسكندرية وغيرها من الحواضر اليونانية ، في العصر الذي تلا فتوح الإسكندر . وقد نشأ كذلك في الأدب اللاتيني ضئيلاً يسيراً ، حتى إذا اتصل الأدباء اللاتينيون بالأدب اليوناني عامة والأدب الإسكندري خاصة ، ترجموا ثم قلدوا ثم برعوا ، حتى أصبح هذا الفن من فنون الشعر اللاتيني ممتازاً أشد الامتياز وأعظمه في القرنين الأول والثاني للمسيح ، أي في العصر المجيد من عصور الإمبراطورية الرومانية .

أما في أدبنا العربي فقد تأخرت نشأته شيئاً ما ؛ فلم يكد يعرفه الأدب الجاهلي ، أو نحن لا نعرف من الأدب الجاهلي ما يمكننا من أن نقطع بأن الشعراء الجاهليين قد حاولوه أو قصدوا إليه . ولم يعرفه الأدب الإسلامي (١) وأكبر الظن أن الشعراء الإسلاميين لم يعرفوه ؛ لأنهم لم يرثوه عن الفحول الجاهليين ، ولأنهم لم يشهدوا حياة متحضرة مترفة كالتى عرفها شعراء الإسكندرية وشعراء روما ، وإنما عرفوا حياة قد اتصلت بالحضارة ولكنها لم تبرأ من البداوة ، وقد حفظت تراثاً قديماً ضخماً ومذهباً في الشعر مألوفاً ، أخص ما يمتاز به طول النفس حتى يؤدي الشاعر ما يحتاج إلى تأديته في أناة ومهل لا تمتاز بالقصر ولا بالاختصار .

(١) وقد يروى شيء منه بين الفرزدق وعبد الله بن الزبير مثلاً .

فلما كان العصر الثاني من عصور الحضارة الإسلامية ، أزهـر في العراق هذا الأدب العباسي الجديد ، وظهر هذا الفن في الأدب العربي قوياً خصباً مختلفاً ألوانه في البصرة والكوفة وبغداد . ولكن حياته لم تطل ، وإنما اقتضت ظروف السياسة والأدب أن يعدل الشعراء الفحول عنه عدولاً يوشك أن يكون تاماً ، وأن يستخفى به بعض الشعراء وبعض الكتاب ، بل بعض الذين لا تعرف لهم سابقة في الشعر ولا في النثر لأسباب قد أبينها في غير هذا الحديث .

ثم كانت عصور الضعف الأدبي ، فذهب هذا الفن من فنون القول فيما ذهب ، واستوفت في عصرنا الحديث حياة أدبية تقليدية غنى فيها أدباؤنا بعمود الشعر ، ولم يخالفوا عن سنة الفحول من الجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، فلم يحفلوا بهذا الفن الذي لم يزدهر في تاريخ الشعر العربي إلا وقتاً قصيراً . وقد نقلت الآداب اليونانية واللاتينية إلى اللغات الأوروبية في العصر الحديث ، فقلد الشعراء الأوروبيون في هذا الفن كما قلدوا في غيره من الفنون ، ثم ابتكروا فيه كما ابتكروا في غيره من الفنون ، حتى أغنوا آدابهم منه بألوان رائعة . ولكن النهضة الشعرية التي دفع الأوروبيون إليها منذ أواخر القرن الثامن عشر صرفتهم عنه إلى مذاهب أخرى من الشعر صرفاً يوشك أن يكون تاماً .

فأنت ترى من هذه الخلاصة القصيرة القاصرة أننا بإزاء فن من فنون الشعر عرفته الآداب الكبرى القديمة والحديثة ، وسبق إليه اليونان كما سبقوا إلى غيره من فنون الشعر والنثر . فإذا كان في هذا اللون الذي يعرض عليك في هذا الكتاب من ألوان الكلام شيء جديد فهو أنه يعرض عليك

نثراً لا شعراً ؛ لأن الذى يقدم إليك هذا الكتاب لم يتح له قرض الشعر من ناحية ، ولأنه كثره من الكتاب القدماء فى الأدب العربى لا يكره أن يزاحم الشعراء على فنون الشعر ، وأن يوسع ميدان النثر على حسابهم بين حين وحين . وقد بدأ طرق الكتاب فى البصرة وبغداد وغيرهما من الحواضر الإسلامية فنوياً كان الشعراء يحتكرونها لأنفسهم . فلم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا التقليد ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا الابتكار ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يكونوا أئمة يذهب الشعراء فى الشعر مذهبهم فى النثر . وما أظن أن حلّ المنظوم ونظم المثنوي يدلان على شئ غير هذا الذى أشرت إليه . ولكن من حقل أن تسألنى عن هذا الفن الغريب الذى أطلت القول فى تاريخه دون أن أبين لك حقيقته وأعرض عليك خصائصه ، وأفرق لك بينه وبين غيره من فنون الشعر . وليس المهم هو أنى أحسنت ابتغاء الوسيلة إلى نفسك أو لم أحسنه حين بدأت بهذا الكلام الكثير عن فن لم أبين لك عن حقيقته ولا عن خصائصه ، وإنما المهم هو أن أكشف لك عن هذه الحقيقة ، وأعرض عليك هذه الخصائص ، لنستطيع أن نمضى معاً على شئ من البصيرة والثقة فيما سنستأنف من القول .

ويجب أن أعترف بأنى لا أعرف لهذا الفن من الشعر فى لغتنا العربية اسماً واضحاً متفقاً عليه ، وإنما أعرف له اسمه الأوروبى ؛ فقد سماه اليونانيون واللاتينيون « إبيجراما » أى نقشاً ، واشتقوا هذا الاسم اشتقاقاً يسيراً قريباً من أن هذا الفن قد نشأ منقوشاً على الأحجار ؛ فقد كان القدماء ينقشون على قبور الموتى وفى معابد الآلهة وعلى التماثيل والآنية والأداة البيت أو الأبيات من الشعر . يؤدون فيها غرضاً قريباً أول الأمر . ثم أخذ هذا الفن

يعظم ويتعقد أمره ، حتى نأى عن الأحجار ، واستطاع أن يعيش في
الذاكرة وعلى أطراف الألسنة ، ثم استطاع أن يعيش على أسلات الأفلام
وفي بطون الكتب والدواوين . وقد أطلق اليونانيون واللاتينيون كلمة
«إيجراما» أول الأمر على هذا الشعر القصير الذى كان ينقش على
الأحجار ، ثم على كل شعر قصير ، ثم على الشعر القصير الذى كانت
تصور فيه عاطفة من عواطف الحب أو نزعة من نزعات المدح ، أو نزعة
من نزعات الهجاء . ثم غلب الهجاء على هذا الفن ، ولا سيما عند الإسكندرانيين
وشعراء روما وإن لم يخلص من الغزل والمدح . فلما كان العصر الحديث
لم يكن الشعراء الأوربيون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذى
يقصد به إلى النقد والهجاء .

أما أدبنا العربى فإنه لم يحفل بأن يلتبس لهذا الفن اسماً خاصاً ، وإنما
هو يقسم الشعر من حيث الطول والقصر إلى القصيدة والمقطوعة . وهو
يطلق اسم القصيدة على الشعر الذى تتجاوز أبياته السبعة عند بعض النقاد
والعشرة عند بعضهم الآخر ، ويطلق اسم المقطوعة على الأبيات التى
لا تتجاوز السبعة أو العشرة . ومثل هذا يقال فى الرجز ؛ فالأرجوزة هى
التي تزيد على سبعة أبيات أو عشرة أبيات ، والمقطوعة هى التى لا تزيد
على هذا العدد أو ذاك . وواضح أن كلمة المقطوعة يمكن أن تدل على كل
شعر لم يزد على هذا العدد أو ذاك مهما يكن موضوعه ، ومهما يكن مذهب
الشاعر فيه ؛ فهى لا تدل على هذا المعنى المحدود كما تدل كلمة «إيجراما»
عليه عند اليونانيين واللاتينيين والفرنجة . ولكن هذا لا يمنع أن هذا الفن
قد وجد فى أدبنا العربى وجوداً قوياً بعيد الأثر عظيم الخطر ، على النحو

الذى وجد عليه فى الإسكندرية وروما وفى الحواضر الأوربية فى العصر الحديث .
 وأول ما يمتاز به هذا الفن أنه شعر قصير ، فإذا طال فهو قصيدة فى
 الغزل وفى المدح أو الهجاء . فالقصر إذاً خصلة مقومة لهذا الفن . ثم يمتاز
 بعد هذا القصر بالتأنق الشديد فى اختيار ألفاظه بحيث ترتفع عن الألفاظ
 المبتذلة دون أن تبلغ رصانة اللفظ الذى يقصد إليه الشعراء الفحول فى
 القصائد الكبرى ، وإنما هو شئ بين ذلك لا يبتذل حتى يفهمه الناس
 جميعاً فترهده فيه الخاصة ، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا المثقفون الممتازون
 والذين يألّفون لغة الفحول من الشعراء .

ومصدر ذلك أن هذا الفن إنما ازدهر وعظم خطره فى عصور الحضارة
 المتقدمة التى تدعو إلى التأنق وتدفع إلى التكلف ، وتباعد بين الناس وبين
 عصور البداوة وآدابها الجزلة التى تبهر وتروع ، ولكن ذوقها يختص به
 المثقفون الممتازون دون هذه العامة التى تحيا حياة مبتذلة وتصورها تصويراً
 مبتذلاً . والواقع أن الشعراء الذين عنوا بهذا الفن عناية خاصة ، فوضعوا له
 أصوله وقوانينه قد كانوا من شعراء القصور فى الإسكندرية وروما وفى كثير
 من الحواضر الأوربية . وقد كانوا من الشعراء المتصلين بالقصور اتصالاً
 قوياً أو ضعيفاً فى العصر العباسى الأول . فالشاعر اليونانى المبرز فى هذا
 الفن « كليماك » قد كان شاعر القصر فى الإسكندرية أيام بطليموس
 الثانى ، والشاعر اللاتينى المبرز فى هذا الفن « مارسيال » قد كان شاعر
 القصر فى روما أيام الإمبراطور « دوميسيانوس » والشعراء العرب الذين
 عنوا بهذا الفن فى البصرة والكوفة وبغداد قد كانوا يتصلون بقصور الخلفاء
 والأمراء والوزراء فى هذه الحواضر الثلاث من عواصم الإسلام . فليس

غريباً أن يتأثر هؤلاء الشعراء بهذه الحياة الناعمة المترفة التي تكون في القصور ، وليس غريباً أن يلائموا بين ما يختارون لمعانيهم من الألفاظ وبين ما في هذه الحياة المترفة من التأنق والتكلف والامتياز . وليس معنى هذا أن الألفاظ التي تختار لهذا الشعر يجب أن يبعد بها التأنق كل البعد عن الابتذال أو ينأى بها كل النأى عن جزالة الفحول ، وإنما معناه أن الشاعر يجب ألا يلجأ إلى الألفاظ المبتذلة المسرفة في الابتذال أو الرصينة المغرقة في الرصانة إلا حين يدعوه الفن إلى ذلك ويضطره إليه اضطراراً .

ثم يمتاز هذا الفن بعد هاتين الخصلتين ، أو قل إن شئت قبل هاتين الخصلتين ، بخصلة ثالثة تتصل بالمعنى ، وهى أن يكون هذا المعنى أثراً من آثار العقل والإرادة والقلب جميعاً . فليس هو شعراً عاطفياً يصدر عن القلب أو يفيض به الطبع ، وليس هو شعراً يصنعه العقل وحده ، وإنما هو مزاج من ذلك يسيطر الذوق عليه قبل كل شيء . أثر العقل فيه أنه نقد لاذع ، أو هجاء ممض ، أو تصوير دقيق لشيء يكره أو يحب . وهذا كله يحتاج إلى بحث وتفكر وإلى روية وتأمل ، ولا يأتي مستجيباً لعاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء . وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتي عفواً الخاطر ولا فيض القريحة ، وإنما يقصد الشاعر إلى عمله وإنشائه ، ويستعد لتجويده والتأنق فيه . وأثر القلب فيه يفيض عليه شيئاً من حرارته وحياته ، ويجرى فيه روحاً من قوته التي يجدها عندما يقبل على الخير أو عندما ينفر من الشر ، عندما يرضى ، وعندما يسخط . فالمعنى في هذا الشعر يجب أن يكون قوياً حتى حين يظهر فيه الابتذال . وكل هذا لا يأتي إذا صح التعاون بين القلب والإرادة والعقل والذوق على هذا الإنشاء .

ثم يمتاز هذا الفن بخصلة أخرى لا أدري كيف أصورها ، ولكن سأحاول ذلك كما أستطيع ، وهي أن تكون المقطوعة منه أشبه شيء بالنصل المرفف الرقيق ذى الطرف الضئيل الحادّ قد ركب في سبهم رشيق خفيف لا يكاد يترعّ عن القوس حتى يبلغ الرمية ثم ينفذ منها في خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تحسّ . ومن هنا امتاز هذا الفن بالبيت الأخير أو البيت الأخيرين من المقطوعة ، فهما يقومان منها مقام الطرف الضئيل النحيل الرقيق الرشيق من نصل السهم . فإذا كانت المقطوعة بطيئة الحركة ثقيلة الوزن فليست من هذا الفن في شيء . وإذا أردت أن تلتبس لهذا الفن صوراً شعرية تحقق هذه الخصال كلها في أدبنا العربي فاعمد إلى شعر بشار وحمام ومطيع وأصحابهم في البصرة والكوفة وبغداد ، فستجد من ذلك أكثر مما تريد وأكثر مما تحب .

وهنا أصل إلى الخصلة الأخيرة التي شاعت في هذا الفن عند القدماء من اليونانيين واللاتينيين والعرب ، وإن لم تكن شاملة ولم تبلغ أن تصير قانوناً من قوانين الفن ، وهي هذه الحرية المطلقة التي يتجاوز بها أصحابها حدود المألوف من السنن والعادات والتقاليد ، والتي تدفع أصحابها إلى الإفحاش في اللفظ ، وإلى الإفحاش في المعنى ، وإلى التحرر مما يفرضه الذوق التقى على الرجل الكريم حين يتحدث إلى الناس أو حين يتحدث عن الناس . وأنت واجد من هذا شيئاً كثيراً عند بشار وأصحابه في البصرة والكوفة وبغداد ، كما أنك واجد منه شيئاً كثيراً عند «كلمك» و «مارسيال» وأصحابهما من شعراء الإسكندرية وروما . ولعلك تجد شيئاً من هذا عند بعض الشعراء المحدثين قبل الثورة الفرنسية في إيطاليا وفرنسا ، ولكنه قليل

بالقياس إلى ما تجده عند القدماء .

من هذا كله تتبين حقيقة هذا الفن وخصائصه ، وتبين بنوع خاص أنه لون من ألوان الشعر الهجائي ، يقصدُ به إلى القِصَر والخفة والحدة ليكون سريع الانتقال ، يسيرَ الحفظ ، كثيرَ الدوران على ألسنة الناس ، يسير الاستجابة إذا دعاه المتحدث في بعض الحديث ، أو الكاتب في بعض ما يكتب ، أو المحاضر في بعض ما يحاضر ، ثم ليكون مضحكاً للسامعين والقارئین بما فيه من عناصر الخفة والحدة والمفاجأة ، ثم ليكون بالغ الأثر آخر الأمر في نفوس الأفراد والجماعات ، يدفعهم إلى ما يريد أن يدفعهم إليه من الخير ، ويردهم عما يريد أن يردهم عنه من الشر في غير مشقة ظاهرة أو جهد عنيف .

وليس من شك في أنك قد ارتعت حين بلغت هذا الموضع من هذا الحديث . قد ارتعت من جهة ، وثار في نفسك حب الاستطلاع من جهة أخرى . فأننا أصور لك فناً من فنون النقد اللاذع والهجاء الممض الذي هو أشبه بالسهم التي لا تترع عن القوس إلا أصمت وأزدت من تصيب . وأنا أصور لك فناً من فنون الهجاء لا يتورع أصحابه عن فاحش اللفظ وقبيح المعنى وسيئ الرأي في الحياة والأحياء . وأنا أقدم لك هذا التصوير بين يدي كلام أزعج أن بينه وبين هذا الفن صلة . فأنت مشفق مرتاع ، تسأل نفسك إلامَ أريد بهذا الكتاب ؟ وما هذه السهام الرقيقة الرشيقة الموسومة المسمومة التي أرسلها ؟ وإلى من أريد أن أرسلها ؟ كل هذه الأسئلة تخطر لك فتثير في نفسك روعاً وإشفاقاً ، وتثير في نفسك شوقاً إلى المعرفة وكلفاً بالاستطلاع . فلا تشفق ولا ترتع ، ولا تمن نفسك الأمان ولا تخذعها

بالغرور ؛ فليس في هذا الكتاب هجاء وقد انقضى عصر الهجاء منذ زمن طويل . وليس في هذا الكتاب سهام مسمومة أو مسمومة فقد انقضى عصر التراشق بالسهام منذ عهد بعيد . ولست أريد بهذا الكتاب إلى أحد ؛ فإني لا أعرف من أمر الذين ألفتهم من قريب أو من بعيد إلا خيراً .

ولست أريد بهذا الكتاب إلى شيء إلا النقد الذي يسمونه بريئاً في هذه الأيام ، والنقد الذي يوجه إلى ألوان من الحياة لا إلى أفراد بأعينهم من الناس . ومن المحقق أني لم أخترع هذا الكلام من لا شيء ، ولم أشتق هذه الصور من الهواء ، ولم ألتبسها في الصين ولا في اليابان ولا في بلاد الهند والسند ، وإنما أنا أعيش في مصر ، وأشارك المصريين في الحياة التي يحيونها ، وأخذ بحظي مما في هذه الحياة مما يرضى وما يسخط . وأنا بعد ذلك أعرف أقطاراً من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها في الكتب والأسفار . وأنا بعد هذا وذاك أعرف أجيالا من الناس عشت بينهم أو قرأت أخبارهم وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب . ولست أزعج كما زعم أبو العلاء أني أعرف الناس جميعاً ، وأنني قد تلوت أجيال الناس جميعاً ؛ فقد كان أبو العلاء غالياً حين قال :

ما مرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أنبائهم طرفٌ
وأنا واثق كل الثقة بأن كثيراً من أبناء الزمان قد مروا في هذه الدنيا
وليس عندي من أنبائهم طرف طويل أو قصير ، ولكنني واثق بأنني عرفت
الناس ، وبلوت أخبارهم وآثارهم إلى حد ما ، وتأثرت بما بلوت من ذلك ،
فسخّطت حيناً ورضيت أحياناً ، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا

في صراحة واضحة تغني عن التلميح الغامض .

ثم أنا أتق بعد هذا بأن ما يقال في نقد الناس وحمدهم إنما هو أشبه بالمرايا ، يرى الناس فيها أنفسهم ؛ لأننا لا نقدر عفايت الجن ، ولا نحمد الملائكة الأبرار ، وإنما نقدر ونحمد ما نرى وما نعلم من أعمال الناس وآثارهم .

فأنا صادق حين أقول إنك لن تجد في هذا الكتاب هجاء لاذعاً ، ولا نقداً ممضاً . وأنا صادق حين أقول إنك ستجد في هذا الكتاب مرايا يمكن أن ترى الناس فيها أنفسهم . وليس عليهم ولا على من ذلك بأس ؛ فما أكثر ما نرى أنفسنا في كثير مما نقرأ من آداب القدماء والمحدثين مهما تكن اللغات والعصور والظروف والبيئات التي تنشأ فيها هذه الآداب .

وأنت بعد هذا كله مضطر إلى أن تخفف من شوقك إلى المعرفة وكلفك بالاستطلاع ؛ فإني لا أريد أن أعلمك شيئاً ، ولن تتعلم من هذا الكتاب شيئاً ، وإنما هو كلام ستقرؤه فترضى عنه أو تسخط عليه من الناحية الفنية الخالصة لا أكثر ولا أقل .

وواضح أني لم أذهب مذهب القدماء في الاندفاع مع الحرية الجامعة ؛ فالأدب العربي الحديث أكرم على وآثر عندي ، وأنت وأنا أكرم على نفسي من أن أذهب هذا المذهب الذي قدمضي مع أصحابه القدماء . وإذا أردت أن تعرف الحق الصريح من أمر هذا الكتاب فإني منبك به في سداجة يسيرة لا تكلفك مشقة ولا جهداً ؛ لأنني أنا لم أتكلف في هذا الكلام مشقة ولا جهداً . فأنا رجل أحب القراءة ، وأحب القراءة المختلفة المتنوعة : أقرأ في الأدب العربي القديم والحديث ، وأقرأ في الآداب

الأوربية القديمة والحديثة ؛ وأجد في هذه القراءة متعة تكسب الحياة قيمة خاصة . ولكن قد أقف عند هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب وقفة خاصة ، فأسأل نفسي : أيجاد هذا الفن في اللغة العربية أم لا يوجد ؟ أو أسأل نفسي . أنتجيب اللغة العربية لهذا الفن إن دعيت إليه أم لا تستجيب ؟ ثم أسأل نفسي : أقادر أنا على أن ألائم بين هذا الفن وبين اللغة العربية أم غير قادر ؟ ولا أكاد ألقى على نفسي هذا السؤال الأخير حتى أطلب إلى صاحبي أن يأخذ القلم والقرطاس ، ثم آخذ في الإملاء ويأخذ هو في الكتابة . فإما إن أحسست شيئاً من التوفيق إلى ما أردت فإنا ماض في المحاولة حتى أنتهى بها إلى بعض غايتها ، ثم أذيع ذلك في الناس ليقروا وليرضوا وليسخطوا ، وليقلد منهم المقلد ، وليعرض منهم المعرض . وأما إن أحسست عجزاً عن هذه الملاءمة فإنا أجدد المحاولة مرة ومرة حتى إذا استيأست أعرضت عن الإملاء وأعرض صاحبي عن القلم والقرطاس . والذين يقرءون ما أذعت في الناس من الكتب منذ أكثر من ربع قرن يستطيعون أن يروا ذلك في كثير مما أذعت فيهم . وأن يتبينوا في وضوح وجلاء أنى أستجيب حين أكتب - وحين أكتب في الأدب خاصة - لشئين اثنين : أحدهما ما أرى من رأى أو أجد من عاطفة وشعور . والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تقبل فنوناً من الأدب لم يطررها القدماء ، وامتحان قدرتي أنا على أن أكون الصلة بين اللغة العربية وبين هذه الفنون والآداب . وقد قرأت فيما قرأت كثيراً من شعر القدماء والمحدثين في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات التي أستطيع أن أفهمها . وأعجبنى هذا الفن من فنون النقد والهجاء . ورأيت أن العرب قد أخذوا بحظ منه في القرن الثاني فاجادوا ،

ولكنهم لم يكادوا يتجاوزون هجاء الأشخاص وهذا العبث الذى كان القدماء يألّفونه ويتهالكون عليه . ثم رأيت أن هذا الفن قد ذوى زهره وغاض ماؤه حين انقضى العصر العباسى الأول ، وأن الشعراء الفحول قد عادوا إلى الهجاء الطويل ، واستأنفوا مذهب القدماء من أعلام الجاهلية والإسلام .

ولم أكن صاحب شعر ولا قدرة على النظم فلم أحاول إذاً أن أردّ لهذا الفن حياته كما ألفتها أيام بشار وأصحابه . ولكن ما يمنعنى أن أذهب فى هذا الفن مذهب القدماء على أن أتخذ النثر أداة مكان الشعر ؟ !

فلنجرب إذاً ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنمتحن لغتنا ، ولنمتحن ذوق القراء . وقد جربت وأدعت مقطوعات قليلة لا تبلغ الست أو السبع فى الأهرام . فرضى الناس وسخطوا ، وأثنوا وعابوا . ولست أريد من الإنتاج الأدبى إلى أن أذوق الرضا والسخط جميعاً . وإذاً فلنمض فى التجربة ، وقد مضيت . وهأنذا أقدم إليك مائة ونصف مائة من هذه المقطوعات . فاقراً إن شئت ، وارض إن أثارت القراءة فى نفسك الرضا ، واسخط إن أثارت القراءة فى نفسك السخط ، وأنا أعفيك من الثناء والتقريظ مخلصاً ، وأبيح لك النقد والعيب مخلصاً أيضاً ، وأتمنى أن يتاح للشباب من القراء أن يحاولوا من ذلك مثل ما حاولت ، ويبلغوا من ذلك أكثر مما بلغت . فאלله يشهد ما كتبت ولا خطبت ولا حاضرت إلا وفى نفسى أمنية هى أن أدفع الشباب إلى أن يعلموا ويعملوا وينتجوا ، ويتاح لهم أكثر مما أتيج لى من النجاح والتوفيق .

دعاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : علّمني كلمات أتّجه بهنّ إلى الله في أعقاب الصلوات الخمس ؛ فإنّي أجد في نفسي حاجةً إلى الدعاء في هذه الأيام الشّداد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : سل الله يا بُنَيَّ أن يعصمكَ من صغر النفس الذي تضخّمُ له الأجسام ، ومن ضيق العقل الذي تتسع له البطون ، ومن قصر الأمل الذي تمتدّ له أسباب الغرور .

وكنّت حاضر هذا الحديث بين الأستاذ الشيخ والطالب الفتي ، فقلت في نفسي : ما أجدّر الشباب المصريين أن يتّخذوا من هذا الدعاء لأنفسهم برنامجاً وشعاراً !

فيض

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فسّر لي قولَ القائل « فاض الإناء » .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا مجازٌ يا بُنَيَّ في كلّ أمرٍ تجاوزَ حدّه حتى أصبح لا يطاق . ألم تسمع قولَ الشاعر :
شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادةً
ولكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : فإني أعرف أوعية لا تمتلئ ، وآنية لا تفيض .

قال الأستاذ الشيخ مبتسماً : وما ذاك ؟

قال الطالب الفنى : خزائن الأغنياء التى مهما يُصَبَّ فيها من المال فهى ناقصة ، وجهنم التى يقال لها : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ وعقول العلماء التى لا تبلغ حظاً من المعرفة إلا طمعت فى أكثر منه .

قال الأستاذ الشيخ ضاحكاً : لقد أصبحت حكماً منذ اليوم ، ولكن تعلم أن إناء واحداً قد يفيض ، فيصبح مضرِباً للأمثال ، ومصدراً للعبير ، وبعيداً الأثر فى حياة الأجيال . ألا تذكر سيلَ العرم ؟ !

حرية

قال أحد أمراء الموصل ، وكان أريباً ، لأحد ندمائه وكان أديباً : « ما شر ما يمتحنُ به الأديب ؟ » .

قال النديم وهو يتسم : « فقدانُ الذوق الذى يجعل أدبه فاتراً خيراً منه البارد » . وأطرق النديم لحظة ثم قال للأمير : « وما شر ما يمتحنُ به صاحب السلطان ؟ »

قال الأمير وقد ظهر فى وجهه العبوس : « ثناء الذين لا يحسنون الثناء ، يقولون فينا فلا يصدقهم أحد ، ويقولون فينا فلا نصدقهم نحن . لأنهم يقولون فينا وهم لا يصدقون أنفسهم » . قال أحد الجلساء : « فما

يُمنعكما أن تحظرا على الأديب الذى لا ذوق له أن يحدث أدباً ، وعلى المادح الذى لا فن له أن يحدث مدحاً ؟ ! »

قال الأمير وعلى ثغره ابتسامة خير منها العبوس : « فإن الحرية تأمرنا أن نخلى بين الناس وبين ما يقولون من الجدل والهراء » .

حرية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم ترَ إلى فلان وُلِدَ حراً وشبَّ حراً ، وشاخ حراً ، فلما دنا من الهرم آثر الرقَّ فيما بقى من الأيام على الحرية التى صحبها فى أكثر العمر ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أضعفته السنُّ فلم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معاً ، وأنت تعلم أن الحرية تحملُ الأحرار أعباءً ثقلاً .

أدب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس قد أدبنا الإسلام بأن نجلس بحيث ينتهى بنا المجلس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! ولكن إذا انتهى بك المجلس إلى حيث تجاور من لا تحب أن يعرف السلطان أنك جاورته ، فلا عليك أن تتخطى رقاب الناس وتجلس حيث تأمن الغضب ولا تتعرض للائمة . وقد أدبنا الحياة بأن الضرورات تبيح المحظورات .

حرية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يُظهر سيرة الأحرار ويخفى سيرة العبيد ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذلكَ أحرى أن يُظهره على دخائل الأحرار لينقلها إلى سادته .

حرية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يرى آراء المسرفين من أهل الشمال ، ويسير سيرة المسرفين من أهل اليمين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن له عقلَ الحرِّ وأخلاقَ العبيد .

وصول

لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى أصبح شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرةً ملتويةً ، يغمرها ضوء الشمس المشرقة المُحرقة أحياناً ، وتنظر إليها الشمس من وراء نقاب من السحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلامٌ قاتمٌ فاحمٌ في كثير من أجزائها . فلما ارتقى إلى القمة واطمأن في مكانه منها ، نسى ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ،

وعاش ليومه الذى هو فيه .

نسى الماضى ، فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل ، فلم يتحفظ ؛ ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس ؛ فلم يأمن إلى أحد ، ولم يأمن إليه أحد . وإذا هو مضطر إلى أن يظهر الحبّ لقوم يبغضهم أشدّ البغض ، وإذا الناس من حوله مضطرون إلى أن يظهرُوا له حباً متهاكاً ويضمُّروا له بغضاً مهلكاً ، وإذا الأسباب بينه وبين الناس توثّت ، حتى إن أيسر الأمر لينتهى بها إلى الانقطاع .

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : لقد سمعتُ منك ولكنى لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثنى بالألغاز منذ حين ، فماذا تعنى وإلامَ تريد ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : إنّ حبّ الاستطلاع إنّ نفع فى بعض الوقت فقد يضرّ فى بعضه الآخر . وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هى مראيا تنصبّ للناس ، فلينظر فيها من يشاء وليعرض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها ؛ فقد ينظر فيها من يحبّ الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى لأنه يرى نفسه .

ضمائر

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : ألا تُحدثنى عن هذه الضمائر التى تفعل ما تشاء ، ثم تستتر وراء أفعالها ، وجوباً مرة ، وجوازاً مرة أخرى ؛ فهى دانية نائية ، وبادية خافية ، وهى ملحوظة غير ملفوظة ، ومعقولة غير

مقولة ؛ وهى على ذلك تكلف الأساتذة والتلاميذ هما ثقيلاً ، وعناء طويلاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما أنت وهذه الضمائر البريئة النقية ! إنما هى بنات الوهم ، قد فرضها العلماء رياضةً لعقول الطلاب ، على التحليل والإعراب ، وهى لا تؤذى أحداً من قريب أو بعيد . فإذا علمت علمها ، وذلك يسير ، فدعها وشأنها ، وتحدث عن ضمائر أخرى أشد في حياة الناس خطراً ، وأبعد في أعمالهم أثراً ، تستخفى فى أعماق النفوس ، عابسة تُشيع الابتسام المريب ، ومظلمة تنشر الضوء المخيف .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد عدت إلى ما دأبت عليه من الألغاز ، فوضح لى بعض ما تقول !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما تقول فى ضمائر الأطباء حين يعودون المرضى ، وفى ضمائر المرءوسين حين يتلقون أمر الرؤساء ، وفى ضمائر الطلاب حين يسمعون دروس الأساتذة ، وفى ضمائر بعض الأصدقاء حين يسمون للأصدقاء ؟

وكنتم حاضر هذا الحديث ، فتلوت قول الله عز وجل :

« وَنَحْسَبُهُمْ آيْقَانًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، كَوَّارِطٌ عَلَيْهِمْ كَوَّلَتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَكُلِّتَ مِنْهُمْ رُغْبًا » .

جحدود

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد سمعنا منك وفهمنا عنك ، وأعجبنا بك ، ولكننا لم نؤمن لما حدثتنا به صباح اليوم ؛ فقد فسرت لنا ما نقرأ في الكتب ، ولم تفسر لنا ما نرى في الحياة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي في صوت يكاد يبين عن خوف دفين : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد أنبأتنا ، كما أنبأتنا الكتب ، بأن من قدم إلى الناس خيراً لقي منهم خيراً ، ومن قدم إلى الناس شراً لقي منهم شراً ، وقصصت علينا من كتاب المكافأة في ذلك قصصاً رائعة ، وأخباراً بارعة . ولكننا ننظر فنرى الصنيعة لا تكاد تغرس في قلوب الناس حتى تستحيل إلى شجرة الزقوم ، تلك التي وصفها القرآن الكريم ، بأنها طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم .

قال الأستاذ الشيخ وعلى وجهه ابتسامة رفيعة رقيقة : فإن هذه الشجرة كما وصفها القرآن الكريم ، تخرج في أصل الجحيم ، وليست قلوب الناس كلهم جحيماً ؛ وإن منها لجنات يستحيل فيها الشر خيراً ، والمساءة إحساناً . فاجعل ما نقوله لك من هذا عزاء عما تقوله لك الحياة ، وقدم الخير غير يائس من أن تجزى عليه بمثله .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإني أكره أن أتجر بالمعروف ، وأؤثر أن أقدم الخير لا ألتمس له جزاء ، وأؤثر إذا لم يكن بد من الجزاء أن أنتظره من الله الذي لا يذهب العرف بينه وبين الناس .

وكنـت حاضـر هـذا الحـديث ، فـذكرت قـول مؤرخ رومانى عظيم قلما ينظر فيه الأدباء المعاصرون : « إن الصنـيعة لا تـزال مـحتفظة بقيمتها ما دام شكرها يسيراً ؛ فإذا جلت عن الشكر جوزيت بالكفر والجحود » .

حمارا رهان

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : أى صديقك شر : هذا الذى يوأذك حين تستغنى عنه ويحاذك حين تحتاج إليه ، أم هذا الذى يكلوك حين ترزؤك النعمة ، ويشؤك حين تفجؤك النعمة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : كلاهما مريض يا بنى يحسن أن نلتمس له الطب ونقدم إليه الدواء . فأما أولهما فعلته الأثرة التى تفسد المروءة . وأما ثانيهما فعلته الحسد الذى يلبس ثوب الكبرياء .

وكنـت حاضـر هـذا الحـديث ، فلم أستطع أن أدافع ضحكاً عريضاً ؛ فنظر الشيخ وتلميذه إلى فى شىء من وجوم كأنهما يسألان عن هذا الضحك . فقلت : أذكرتمانى قصة العبادى ؛ فقد قيل له : أى حماريك شر : هذا الذى يبطئ بك حين تحتاج إلى السرعة . أم هذا الذى يسرع بك حين تحتاج إلى الأناة ؟ فقال : « هذا ثم هذا » .

حلة

هم أمير الموصل أن يهدى إلى أحد ندمائه خلعة نفيسة ، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تبلغه الهدية . وكان النديم طويلاً في السماء عريضاً في الفضاء . وقد أراد الأمير أن يغيظه ، فأهدى خلعته إلى نديم آخر له كان قصيراً لا يكاد يرتفع عن الأرض ، وضيقاً لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيزاً ضئيلاً . وتلقى النديم هدية الأمير جذلان راضياً . فلما دخل فيها ضاع بين ثناياها ؛ لأنها لم تفصل على قدمه . فأما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرقوا في الضحك . وأما النديم فلم يشك في أن الخلعة قد خلقت له . وأما الناس فقد جعلوا كلما رأوه يشيرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا إليه ! إنه يرقل في حلة فلان .

وقار

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أترى إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن الناس ليعجبون بما يصطنع من الأناة والمهل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لو استطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن يتحرك وهو ساكن ، لفعل .
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ليته يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! ذاك شيء لا يتاح إلا لأولى العزم .

ذاكرة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أرى ذاكرة الشعوب إلا كهذه اللوحات السود التي توضع للطلاب والتلاميذ في عُرفات الدرس وحجراته يثبت عليها هذا الأستاذ ما يمحوه ذاك ، وهي قابلةٌ للمحو والإثبات ، لا تستبقى شيئاً ولا تمتنع على شيء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا حق ، ولكن وراء هذه اللوحات السود في ضمائر الشعوب ، لوحات أخرى ناصعة تحفظ ما يسجل التاريخ من أعمال الناس . ومن وراء هذه وتلك كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم يسأل أصحابها عنها يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة . فأضعف الناس عقلاً وأوهنهم عزماً وأكلهم حداً هو الذى لا يحفل إلا بلوحاتك السود . والرجل الماهر الأثر ذو القلب الذكى والبصيرة النافذة ، هو الذى يحفل بما وراءها من هذه اللوحات الناصعة التى يكتب فيها التاريخ . والرجل كل الرجل هو الذى يمتاز بالضمير الحى والقلب النقى والنفس الزكية ، فلا يحفل بهذه ولا تلك ، وإنما يحفل بهذا الكتاب الذى تحصى الحفظة فيه على الناس أعمالهم ، لتعرض عليهم بين يدي الله فى يوم مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون .

إخاء

كانا صديقين وفيين ، قد صفا بينهما الودّ ، وارتفعت بينهما الكلفةُ ، واشتدت حاجة كليهما إلى صاحبه ، حتى لم يكونا يفترقان إلا كارهين . وقد استقام لهما الودّ الخالص ، والحب الصّفوّ ، ما لم يقدر أحدهما لصاحبه على شيء من متاع الدنيا . ثم أُتيح لأحدهما حظ من قوة ، فأسدى إلى صاحبه طرفاً من خير . فما هي إلا أن تستحيل الصلة بينهما إلى شيء معقد أشدّ التعقيد ، فيه الاعتراف بالجميل ؛ والاعتراف بالجميل يكدر صفو المودة . وفيه الاستراثة من النفع ، ودخول المنفعة بين الأصدقاء مفسدٌ للصدقة . وفيه الموجدة إذا لم ينل صاحب المنفعة ما يبتغى ، وحاجة من عاش لا تنقضى ، كما يقول الشاعر القديم ؛ ودخول الموجدة بين الأصدقاء ؛ حين لا يبلغ أحدهم من نفع صاحبه ما يريد ، أول مراتب العداء . وفيه الحسد ؛ والحسد يأكل المودة كما تأكل النار الحطب . ثم فيه الجحود ؛ والجحود لا يفسد الودّ وحده ، ولكنه يفسد المروءة أيضاً . أوجب إذاً أن يعجز الأصدقاء عن أن ينفع بعضهم بعضاً لتصح بينهما الصداقة ، وليخلص بينهما الإخاء ؟ لا أدري ! ولكني أعلم أن ليس أخطر على المودة الخالصة من دخول المنفعة بين صديقين .

إخاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إن الشاعر يخبرنا بين الوحدة واحتمال الإخوان على علاقتهم حين يقول :
 فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
 مُقَارِفٌ ذَنْبٌ مَرَّةً وَمُجَانِبٌ
 فَأَيُّ الْأَمْرَيْنِ تَحِبُّ لِي أَنْ أَخْتَارَ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن الشاعر لم يخبرك وإنما ألزَمَكَ الخصلةَ الثانية ؛ فأنت لا تستطيع أن تنسلَّ من الحياة الاجتماعية ، كما لم يستطع أبو العلاء أن ينسلَّ منها . فاحتمل الحياة الاجتماعية كلها ، واصبرَ لما فيها من المحن .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان محنة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أَى محنة !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إذا وفى لك الإخوان امتحنت في وفائهم وفرضت عليك المروءة ألا تفتّر ولا تبطر ، ولا تستغلّ الوفاء فتشقى عليهم بما لا يطيقون . وإن تنكّر لك الإخوان امتحنت في تنكرهم وفرضت عليك المروءة ألا تقسو ولا تظلم ولا تتجنى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون . وأنت ممتحن بعد ذلك في نفسك ، تفرض عليك المروءة أن تفي لهم إذا وفؤا ، وتصفوا لهم إذا صفؤا ، وتعرفهم حين ينكرونك وتنصحهم حين يغشونك ،

وتبرهم حين يغدرونك ، وتعطيهم أكثر مما يعطونك ، وتسير من إخائهم على مثل الشوك .

صَدَقْنِي ! إن إخاء الإخوان محنة لا يثبت لها إلا أولو العزم .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإني أوتر الوحدة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هيهات ؟ تلك أمنية تبتغي ولا تنال .

إخاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : كيف تقولون في إعراب هذا البيت :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ

كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغير سِلَاحٍ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أما النحويون فيقولون إن « أَخَاكَ » منصوبٌ

على الإغراء ؛ لأن الشاعر يرغب في حب الإخوان والوفاء لهم .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأما أنت ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وأما أنا فأعربه منصوباً على التحذير ،

وأغير فيه كلمة واحدة فأنشده :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ

كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِكُلِّ سِلَاحٍ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إنك لشديد التشاؤم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

وهل أنا إلا كالزَّمان إذا صحَّ

صَحَتْ ، وإن ماق الزمان أموقُ

إِخْوَان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في عيون الأخبار أن المأمون قال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالداء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا أحياناً ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : عسى المأمون يا بني أن يكون مصيباً في أيامه ، ولكنك تعلم أننا نعيش في أيام شح فيها الغذاء ، وقل فيها الدواء ، وانتشر فيها الداء . وأخلق بمن بقي من الإخوان أن يكونوا كما نرى لنا من الحياة : جوع لا يدفعه غذاء ، وداء لا يشفيه دواء .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا فاعمل صالحاً ، وانتظر الجنة التي وعد الله عباده الصالحين ، والتي لا يحرم أهلها غذاء ، ولا يشكون داء ، ولا يلتمسون دواء ، ولا يعدمون أخاً وفياً ، وصديقاً رضيعاً ، وخليلاً صفيّاً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإلى أن أدخل الجنة إن أتيح لي دخولها ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فاتلُ قولَ الله عز وجل :

« وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

ذوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إنكم لتعلموننا من العلم ما يفسد علينا الذوقَ والحُكمَ جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ وهو يتسم لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ذاك أنى قرأت بيتاً كان طبعى خليقاً أن يعجبَ به ، لولا أنكم تعلموننا الشك وسوء الظن ، والبحث عن الأسباب التى تدعو الشاعر إلى أن يقول ، والكاتب إلى أن يكتب . فلما قرأت هذا البيت من الشعر وهم طبعى أن يرضى عنه ويعجبَ به ويعطيل تعمقه والتفكير فيه . سألت نفسى كما علمتمونى أن أسألهما : ألا يمكن أن يكون مصدر هذا البيت رَغْباً أو رهباً أو حسداً ، فأدركنى فتور الهمة وكلال الحدّ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما هذا البيت ؟ !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : « هو بيتُ قاله رجلٌ من ذوى الراى كان يُردُّ دائماً عن باب الحجاج :

أَلَا رَبُّ نَصَحٍ يُغَلِّقُ الْبَابُ دُونَهُ

• وَغَشُّ إِلَى جَنْبِ السَّرِيرِ يُقَرِّبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما عليك أن يكون مصدرُ هذا البيت

رَغْباً ، أو رهباً ، أو حسداً ، أو غير ذلك من عواطف الشر والخير ؟ ! أترك تعرض عن الزهرة الجميلة ، والوردة النضرة ، والعشب ذى الرواء والبهجة ، حين تعلم ما يتخذ البستاني من الوسائل إلى استنباتها وجعلها زينة للحياة ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لا !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فاستمتع بالأدب ، وتعمق معانيه ، وذُقْ جماله ، كما تستمتع بالحديقة ، واجعلْ بحثك عن التاريخ الأدبي كبحث أستاذ الزراعة عن أصول الزهر والشجر ، ولا يصرفك عن المتعة ، ولا يزهّدك في اللذة ، ولعله أن يغريك بهما ، ويرغبك فيهما . أليس من الرائع أن يخرج الله الحَي من الميت ، والجَميل من القبيح !!

معارضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في عيون الأخبار لابن قتيبة أن عمرو بن عبيد مرَّ بجماعة عكوف ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سارقُ يقطعُ ! فقال : لا إله إلا الله ، سارق السريق يقطع سارق العلانية فهل تنبئني إلام أراد ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان عمرو بن عبيد زعيماً من زعماء المعتزلة ، وكان زاهداً في الدنيا مخلصاً للدين ، وكان شجاعاً لا يخشى في الحق لومة لائم ؛ وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عامل البصرة ، بأنه كان سارقاً لأموال المسلمين ، يسرقها جهرةً لأنه لا يخاف أحداً ، منافقاً في إمضاء حكم الله ، يعاقب على إثم يسير يستخفي به صاحبه ، وهو يقارف أعظم الآثام وأضخمها . فإن اجتمع لك زهد عمرو بن عبيد في الدنيا وحرصه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون ، فانهمضت بتبعات السياسة ، وإن لم يجتمع لك هذه الخصال فالتمسْ نشاطك سبيلاً أخرى .

معارضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة أن طارقاً صاحب شرطة خالد القسريّ مرّ بابن شبرمة وطارق في موكبهِ ، فقال ابن شبرمة :

أراها وإن كانت تُحِبُّ كَأَنَّهَا

سحابةٌ صَيَفٌ عن قريب نَقَّشُ

اللهم لي ديني ولم دنياهم . فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه : أتذكر يوم مرّ بك طارق في موكبهِ وقتَ ما قلت ؟ فقال : يا بنيّ ، إنهم يجدون مثل أهلك ولا يجد مثلهم أبوك . إن أباك أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم . فهل تُبشّي هذا الحديث ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : مغزاه يسيراً كل اليسر ؛ فقد كان ابن شبرمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا ؛ فعارض السلطان لأنه كان طامعاً في بعض ما عنده ، فلما ولى القضاء رضى على السلطان وسخط على نفسه : رضى على السلطان لأنه ولاه ، وسخط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان .

ورحم الله ابن شبرمة ! فقد كان له من الشجاعة حظ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم ؛ لأنه إن لم يستجب لهم حين دَعَوْهُ وجدوا غيره ممن يلى القضاء مكانه ، أما هو فلن يجد غير السلطان قوة توليه القضاء .

فوازن يا بني بين شجاعة عمرو بن عبيد الذى أياأس نفسه من السلطان فانتفى بمعارضته إلى غايتها ، وشجاعة ابن شيرمة الذى أطمع نفسه فيما عند السلطان ، فانتفى بشجاعته إلى أن تمثل بيتاً من الشعر .

معارضة

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ألم تر إلى فلان يطالب بالجللاء السريع - منى وضعت الحرب أوزارها - إلى أوروبا .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : إلى أن يلى الحكم أو يشارك فيه .

معارضة

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : وثب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : يشس من رضا الحكام فابتنفى رضا الشعب .

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : ألم يكن يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : فإن مدّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى يمين ، فوثبة أخرى ترده من رضا الحكام إلى ما يريد . مادام الإنسان قادراً على أن يذهب ويحيى فلا جناح عليه فى أن يذهب ويحيى !

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : والمبدأ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : المبدأ وسيلة لا غاية !

وصف

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في كتاب الكامل للمبرّد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار في حديث جرى : « إنكم لتكثرّون عند الفرع وتقلّون عند الطمع » ، فما أدري أيّ الأمرين أبلغ أثراً في النفس : أخلاق الأنصار هذه أم وصف النبي لها !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كلاهما رائع يملأ النفس إعجاباً وحباً . ولكن خلّف بعد الأنصار خلّفٌ يكثرّون عند الطمع ، ويقلّون عند الفرع ، وانظر حولك فسترى ما يملأ النفوس من ذلك روعة ورّوعاً .

عقوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تحدثني عن سنّار هذا الذي كثّر الحديث عنه في هذه الأيام : من هو ؟ وما شأنه ؟ وفيه يكثرّ الناس عنه الحديث ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : « زعموا يا بنيّ أنه رجلٌ روميّ بنى للنعمان بن المنذر قصرّاً أو قصرين لا أدري ، فلما أتمّ عمله على أحسن وجه وأكمله ، رضى النعمان عنه ، ولكنه أشفق أن يبني لغيره من الملوك مثل ما بنى له ، فأمر به فألقى من أعلى القصر فاندقت عنقه فمات . والناس يضربونه مثلاً لمن يقدم إلى الناس خيراً وإحساناً فيجزّونه بالشرّ والمساءة .

ولكنّ في الدنيا أفراداً كثيرين يمكن أن يسمى كل واحد منهم سنار ، ولكنه يلقى من حائق فلا تندقّ عنقه ، ويساق إليه الشر فلا يؤذيه ، ويكاد له الكيدُ فلا يبلغ منه شيئاً ، تستطيع أن تسميه سنار الخالد ؛ لأنه لا يبنى لأصحاب السطوة والبأس ، وإنما يبنى للشعوب ، ولأنه لا يبنى للشعوب دوراً ولا قصوراً ولا شيئاً من هذه الآثار التي يبلغها البلى ويدركها الفناء ، وإنما يبنى لها فناً وأدباً وفلسفة وعلماً وإصلاحاً . ألا تذكر مصارع النابغين من الأدباء والعلماء والفلاسفة ؟ ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بآثارهم ؟ »

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وسيستمع الناس بعدنا بآثارهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

فن

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : تعلمين أني لم أفهم بعد لماذا قطعت عني قصصك الجميل !

قالت شهر زاد : لأمرين يسيرين ، أحدهما أني أخذت في هذا القصص لأحقن دمي وأعصم نفسي من الموت ، وأصرفك عن سفك الدماء ، وقد بلغت من هذا كله ما أريد . الثاني أن الجهد الفني ممتع حقاً إذا نشأ عن الرغبة والاختيار ، بغيض حقاً إذا نشأ عن الرهبة والإكراه . وقد أخذت نفسي بما تكره ما دعت إلى ذلك ضرورة . وقد آن لي أن آخذ بحظي من الحرية ، فلا أقص إلا حين أريد أنا ، لا حين تريد أنت ، ولا حين تريد الظروف .

خصام

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : تعلمين أنك مخطئة حين تقدرين أنى سلوتُ عن سفك الدماء ، وأنتك مخطئةٌ حين تظنين أنك حققت دمك فلا يراق ، وعصمت نفسك فلن تزھقَ ؛ وإنى لأحس شيئاً من الظماً إلى الدم ، وأخشى أن يكون دمك أول ما يروى ظمئى .

قالت شهر زاد : إن كنت إنما تخوفنى بذلك لأعاود القصص ، فلن تبلغ مما تريد شيئاً ؛ لأن الخوف إن أنتج الفن مرة فلن ينتج مرتين ، وإن كنت جاداً فى هذا النذير فروّ ظمأك وانتفع غلتك ؛ فلن يدك هذا إلا على أن علتك أعضل من أن يشفيها الفن . ولست أكره أن يكون دمي أول ما يروى ظمأك ؛ فقد تجدد من الندم ما يشفى هذه العلة التى عجز الفن عن شفاؤها . وأنت بعدُ مخيرٌ بين أن تصبر على هذا الظماً البغيض فتصبر على ما تكره ، وبين أن تنقَع هذه الغلة فتضطر بنيك إلى اليم وتظمئهم إلى دمك .

قال شهر يار : فإن قتلتك وقتلت بنيك أيضاً ؟

قالت شهر زاد : إذا نصبر على الشكل حتى تلتمس الرى لظمئتك فى دمك ، فتغمدَ فى صدرك الخنجر الذى تريد أن تغمدَه فى صدورنا .
قال شهر يار وقد ظهر عليه روع شديد : حجراً محجوراً .

موعظة

قالت شهر زاد ذات يوم لزوجها شهر يار : تعلم أنى لم أفهم بعدُ لماذا لم تكتف بالانتقام من زوجك التى خانتك ، فأردت أن تنتقم من النساء جميعاً .

قال شهر يار : إنها الفتنة ! واقترئى إن شئت قولَ الله عزَّ وجل :
«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» .

قالت شهر زاد: ليتك قرأت هذه الآية وتدبرتها قبل أن تقترف ما اقترفت من آثام !

قال شهر يار : لقد تغيرت وصرت إلى حال لم أكن أرتقبها منك . قد كنت تسلينى بالقصص ، وتلهينى بحلو الحديث ، فأنت الآن تحاسينى على ما قدّمت . وتؤنينى بالوعظ المرّ .

قالت شهر زاد : لأن السلو عن الإثم لا يكفى لمحوه ، وإنما الندم وحده هو الذى يطهر القلوب ويهين النفوس للتوبة النصوح .

تجن

تلقاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً ، فتعهدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة ، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون فى الحياة الجامعية من درجات وألقاب .

ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة إلى ما يحبون .
 وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متردين ،
 حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم ازور عنه السلطان فازوروا عنه ، وقالوا :
 جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضاً .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « ليس المهم أن تعرف أو لا تعرف ،
 وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجنى والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة
 عبثاً ، وإنما وُضعت لتدلّ على معان . والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وإنما
 تقوم بأنفس الناس ! »

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : « أليس قد علمنا المعلمون في الكتابيب
 أن الإمام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صرْتُ له عبداً ؟ ! »
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « بلى ! ولكن الحياة قد علمتنا أن
 الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان ؛
 فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض
 ما تتمنى ! »

نعمة مضبغة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم تتقدّم بي السن بعد ، ولكني أرى
 الناس بين رجلين : أحدهما يحسن ويدل بإحسانه على الناس ، والآخر
 يتلقى الإحسان ويجمد حق من أهده إله .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! وتضع النعمة بين مانٍ بها وكافر لها .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما تحب لى أن أكون من ذلك ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : مكان من إذا أحسن نسى إحسانه ، وإن أهدى إليه الإحسان لم ينس أن عليه ديناً يجب أن يؤدي . والخير أن تدينَ وألاً تدان .

غرور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة : وطى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس المدينة ستين ، فأحسن السيرة ، وعفّ عن أموال الناس ، ثم عزل ، فاجتمعوا إليه ، فأنشد لدراج الضبائي :

فَلَا السَّجْنُ أَبْكَانِي وَلَا الْقَيْدُ شَفَّنِي

وَلَا أَنُنِي مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ أَجْزَعُ

وَلَكِنْ أَقْوَامًا وَرَائِي أَخَافُهُمْ

إِذَا مِتُّ أَنْ يُعْطُوا الَّذِي كُنْتُ أَمْنَعُ

ثم قال : والله ما أسفت على هذه الولاية ، ولكنني أخشى أن يلى هذه الوجوه من لا يرعى لها حقها . فما تأويل هذا الكلام .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلامٌ يقوله كل من كان يلى أمراً ثم عزل عنه . فكل الناس يرى أنه أقدر من غيره على تدبير الأمور . وعسى

أَنْ يَكُونَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ قَيْسٍ صَادِقًا . وَلَكِنْ تَتَّبِعِ الْآنَ مَنْ يُوَلِّونَ وَيَعَزِّلُونَ
فَسَتَسْمَعُ مِنْهُمْ مِثْلَ مَقَالَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَيْسٍ .

غُرُور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أقرأت كتاب فلان ؟ إنه ينبئنا بأنه
استرد حريته ليملا الأرض حبا وسلاماً ، بعد أن ملئت بغضاً وخصاماً !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! وقد صدق المتنبي حين قال :
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ
رَأَى غَيْرَهُ فِيهِ مَا لَا يَرَى

غُرُور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم ير إلا
حزينا بائساً ، فإذا رُدَّ إليه لم ير إلا سعيداً موفوراً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه يرى نفسه حاكماً بالطبع ، ولم يقرأ
قول الله عز وجل :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

وجوم

مال إلى صاحب يائلى : أقرأت هذا الفصل ؟

قلت : نعم !

قال : من كاتبه ؟

قلت : لا أدري ؛ لأنه لم يعلن اسمه .

قال : ومع ذلك فقد رضى أن يوصف بهذه الأوصاف التى تتعلق الغرور :

قلت : ذلك شأنه .

قال صاحب لنا : ماذا يسر أحدكما إلى صاحبه ؟

قلت : لا يسر أحدنا إلى صاحبه شيئاً .

قال صاحبي : إنما نتحدث عن هذا الفصل الذى كتبه كاتب يوصف

بالامتياز ، ولكنه لا يسمي نفسه ، ولا يسميه ناشر هذا الفصل .

وأخذت الجماعة كلها تعبت بهذا الكتاب الذى امتاز فى رأى نفسه

وفى رأى ناشره ، ولكنه لم يجد الشجاعة على أن يسمي نفسه ، ولم يجد ناشره

الشجاعة على أن يسميه . لم يكن الفصل سياسة ولا شيئاً مما يخاف ، وإنما

كان أدباً أو شيئاً يشبه الأدب . فلما ملأت الجماعة أفواهها بنقد هذا

الكاتب وعييه والاستهزاء به والنعى عليه ، تبين لها أنه قد يكون جالساً بينها .

هنالك سقط فى أيدي القوم ، وأدركهم وجوم كاد يطول لولا أن صاحب

المجلس قال : سبحان الله !

فتفرق القوم ، ومنهم من يستحي ، ومن لاحظ له من حياء .

تضليل

لم أر قط شيئاً أجملَ ولا أشد روعةً مما رأيت اليوم : رأيت نفرأ عرفوا
بذكاء القلوب ، ورجاحة الأحلام ، وامتياز العقول ، قد كذبوا على
الناس فلم يصدقهم أحد ، ولكنهم ألحوا في الكذب حتى صدقوا أنفسهم
ثم خدعوها بالغرور والأوهام ، ثم ابتهجوا بهذا الانخداع ، فكانت
وجوههم مشرقة وثغورهم باسمه ، وألسنتهم منطلقة ، بما يصور النصر
المؤزر ، والفوز المبين . وكان الناس الذين لم يؤمنوا لهم ولم يصدقوهم
يضحكون من هؤلاء الأساتذة المخنكين الذين أرادوا أن يضلوا غيرهم فأضلوا
أنفسهم .

قطط

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لي صديق يحب القطط ويطيل عشرتها .
وأكاد أعتقد أنه اكتسب من أخلاقها شيئاً غير قليل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن عشرة الحيوان للناس تعلمه الأنس
بعد التوحش ، وتكسبه غير قليل من خصال الحضارة . فما يمنع أن يتأثر
الناس بالحيوان كما يتأثر الحيوان بالناس ! وقد قال الشاعر القديم :
عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ .
فإذا كان القرين قطاً فأحرى أن يكتسب المرء أخلاق القطط .

قصور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس عجباً أن تحدثَ الحوادث ، وتلم الكوارث ، ويصطرع العالمُ هذا الصراع العنيف ، ونحن معنيون بصغائر الأمور ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإن المتنبى لم يخطئ حين قال :
 • على قدر أهل العزم تأتي العزائم •
 ولو استطعنا أكثر من ذلك لفعلنا .

تكريم

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : كيف يجتمع الصفوة الممتازة من المثقفين لتكريم كاتب يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن هذه الصفوة تكرم اسمَ شخص تعرفه لا مؤلف كتاب لم تقرأه .

غيبة

قال أحد الأدباء لبعض زملائه : ألا تعجبون لفلان هذا الذي صار صديقاً للناس جميعاً !

قال أحد الزملاء : أخشى ألا يكون صديقاً لأحد ؛ لأن رضا الناس جميعاً شيء لا ينال .

قال آخر : أخشى أن يكون عدواً للناس جميعاً ، وألا تكون صداقته إلا لوناً من المداراة والرياء .

قال ثالث : أخشى ألا يكون صديقاً إلا لنفسه ، يحتمل في إرضائها كل مشقة ويتكلف فيه كل عناء ، ومن ذلك تودده لمن يسيع ومن لا يسيع من الناس .

وكنت حاضر هذا المجلس ، فلما سئلت في ذلك تلوت قول الله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEُغْضَاكُمْ بَEُغْضًا يُبْهِي
أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » .

ظلم

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما حديث سمعته منك صباح اليوم ، فلم أفهم منه شيئاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : سمعتك تتحدث عن الظلم المر ، والظلم
الحلو ، والظلم الذى يجمع بين الحلاوة والمرارة . فلم أفهم عنك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فَإِنَّ الظلم مر في قلب المظلوم حين يمسّه ،
حلّو في قلب الظالم حين يصدرُ منه ، وهو حلّو ومر في قلوب العاشقين
حين يتقارضون الظلم ويحبنى بعضهم على بعض جنائيات الغرام .

رجوع

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يكن فلان شريكَ فلان فيما نقض
وما أبرم من هذا الأمر ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وكان يلتهب حماسةً لما شارك فيه
من نقض وإبرام .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما باله الآن يبرم ما كان نقض ،
وينقض ما كان أبرم ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن للضرورات أحكامها ، ولأن الرجوع
إلى الباطل أنفع وأجدى من التماذى في الحق .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قرأت في بعض الكتب أن المنصور قال
لبعض قواده : صدق الذى قال : أجمعُ كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك .
فقال له أبو العباس الطوسى : أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجمته أن يلوح له
غيرك برغيف فيتبعه ويدعك » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عفا الله عن المنصور وجليسه ! فقد شبهها الناس بالكلاب ، والله عز وجل يقول :
 « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
 خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذى ضرب الكلب مثلاً لرعيه وضع الأسد موضع الكلب ، فكيف كان يقول ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يقول أجع أسدك يأكلك ، وكان ذلك أحرى أن يغير رأيه فى الرعية وسياسته لها ، فيقيم الأمر بينه وبين المسلمين على الهيبة والحب ، لا على الازدراء والإغراء .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذى ضرب الكلب مثلاً لرعيه لم يشبه رعيه بالكلاب ولا بالأسود ، وإنما أخذها كما خلقها الله ناساً من الناس ، فكيف كان يقول ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يقول : أنصف شعبك بحبيك .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف يسمى الشعبُ رعية وقد أصبح مصدرَ السلطات بنص الدستور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو رعية نفسه بعد أن صار السلطان إليه وما أكثر الكلمات العتيقة التي تفقدُ معانيها الأولى وتستبقِها الشعوب مع ذلك لتدل بها على معانٍ جديدة ، فينشأ عن ذلك كثير من التخليط !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتصدق أن الشعب يعتقد أنه سيد نفسه ، وأنه مصدر السلطات وأنه بذلك هو الراعى ، وهو الرعية ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بذلك يحدثه الدستور ، وهو إن لم يصدق الدستور اليوم ، فقد يصدق غداً .

دهز

قال شهر يار ذات يوم لزوجته شهر زاد : ألم تقرئى كليلة ودمنة ؟

قالت شهر زاد : بلى ! قد قرأته وقرأته .

قال شهر يار : فلمَ لم تذهبى فى بعض قصصك من الرمز والإشارة مذهب

بيدبا الفيلسوف ؟

قالت شهر زاد : لأنك لم تذهب فى التماس القصص مذهب دَبْشليم الملك ، كان يطلب الحكمة يغزو بها قلبه وعقله ، فأدى إليه فيلسوفه من

ذلك ما أراد . وكنت غارقاً في بحر من الدم ، فاستنقذتك من هذا الغرق بما وجدت من وسائل الإنقاذ . ولو أنى انتظرت حتى أبرم لإنقاذك أسباباً من التحرير لكان من الممكن أن تذهب بك أمواج الدم ، وأن ألتمسك فلا أجد إليك سبيلاً .

غيرة

قال أحد الأدباء لبعض أصحابه : أتدرى لم مات فلان ؟

قال صاحبه : لا !

قال الأدب : زعموا أن فلاناً غلبه على قلب من أحب .
ثم مضت أسابيع والتقى الصديقان ، وهم أحدهما أن يقول لصاحبه شيئاً ، ولكنه أمسك عن القول لأنه ذكر أن الغيرة قد تقتل الناس أحياناً .

مجنون

ما زالت امرأته تظهر له الغيرة حتى أغرته بالإثم فتورط فيه ، وما زال هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه ، وما زال ابنه ينهى صاحبه عن عشرة خليلة السوء حتى اتخذها له زوجاً . أليس من الخير أن يتدبر الناس مجنون أبى نواس حين قال :

• دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ •

فرب مجنون أدنى إلى الموعظة من الحكمة البالغة .

تلطف

سئلت : أى المصريين أحب إليها وآثر عندها وأحقّ بإعجابها ؟ فسمت قوماً وأثنت عليهم ما عسى أن يكونوا أهلاً له . ولو قد زارت مصر فى وقت آخر وألقى عليها السؤال نفسه لسمت قوماً آخرين وأثنت عليهم بما عسى أن يكونوا أهلاً له . فهى لا تثنى على أولئك وهؤلاء ، وإنما تتلطف للسلطان ، فأحرى ألا تلقى مثل هذه الأسئلة على الأجانب ، لولا أن حاجة المصريين والضعفاء منهم خاصة إلى الشئ تكلفهم وتكلف غيرهم شططاً .

هجرة

قال الطالب الفنى لأستاذه الشيخ : عرض علينا « جوفينال » عرضاً رائعاً الأسباب التى دفعته إلى الرحيل عن روما ، وكلها يرجع إلى فساد الحياة العقلية والاقتصادية ، وإلى بطر الأغنياء ، وبؤس الفقراء ، واضطراب الأمن . ألا ترى أننا فى حاجة إلى جوفينال يفصل لنا الأسباب التى تدفعنا إلى ترك القاهرة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفنى : تريد أن تقول الأسباب التى تدفعنا إلى ترك مصر ؟ ولو قد ذهبت إلى غير مصر من أقطار الأرض لاحتجت إلى جوفينال يفصل لك الأسباب التى تدفعك إلى تركه .

فَأَقْنَعُ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا

قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

كما يقول لبيد : وإذا احتجت إلى جوفينال ليفصل لك أسباب الهجرة
 التي نشعر بالحاجة إليها فأنشد قول أبي العلاء :
 وهل يَأْبَقُ الْإِنْسَانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ
 فَيَخْرُجَ مِنْ أَرْضٍ لَهُ وَسَمَاءُ

هجرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يقل شاعر قديم :
 وفي الأرض مَنَاءٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى
 وفيها لِمَنْ خَافَ الْقِلَى مُتَغَزِّلُ
 أو لم يقل شاعر آخر :
 لَعَنُوكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
 سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَعْزِلُ
 أو لم يقل بشار :
 إِذَا أَنْكَرْتَنِي بَلَدَةً أَوْ نَكِرْتَهَا
 خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادِ
 أو لم يقل المتنبي :
 مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا
 كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
 أَنَا فِي أُمَّةٍ - تَذَارَكَهَا اللَّهُ
 هُ - غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنك لكثير الرواية منذ اليوم ، فما ذاك ؟
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذاك أن إقامة الرجل الكريم على الضيم
الذى لا يرضاه لا تعجبني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن كان الرجل الكريم يحب وطنه
ويؤثر الجهد والعناء فيه على الراحة والرضا في غيره من الأوطان ؟ وقرأ إن
شئت قول الشاعر القديم :

لَعَمْرِي لَقَوْمٌ الْمَرْءُ خَيْرَ بَقِيَّةٍ
عليه وإنْ عالوا به كلَّ مَرْكَبٍ
من الجانب الْأَقْصَى وإنْ كان ذَا غِنَى
كثير ، ولم يخبرك مِنْهُ مُجَرَّبٌ

تصوير

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعرف شيئاً أبرع ، ولا أبلغ ، ولا أدق
في تصوير بؤس البائسين ، وثرأ المثرين ، والتفاوت المخزى بين الطبقات
من هجاء « جوفينال » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألا أدلك على شيء هو أبرع ، وأبلغ ،
وأدقّ تصويراً لذلك من هجاء « جوفينال » ؟ ! انظر إلى حياة المصريين .

رقى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بالُ عظامم الأمور تسندُ إلى قوم لا يعقلونها ، ولا يقدرّون على النهوض بها . ولا بأيسر منها ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعدُ .

رقى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بالُ الذين تعجزُهم صفائر الأعمال يكلفون النهوض بعظامم الأمور ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنهم خلقوا للعظامم ، وخلق غيرهم للأمور اليسيرة .

رقى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أعرف قوماً يكلفون يسير الأمر فيخفقون ويرقى بهم ذلك حتى يكلفوا جليل الأمر !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هؤلاء قومٌ يرقى بهم العجزُ حين يفعلُ بهم الإعجاز .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : يقول الطغرائى فى لاميته المشهورة :

أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفِّ أَسْتَعِينُ بِهَا

على قَضَاءِ حُقُوقِ الْعُلَا قَبْلَى

فما عسى أن تكون هذه الحقوق التى لا يستطيع صاحبها أن يؤديها إلى
العلا إلا أن يكون كثيرَ المال ، عظيمَ الثراء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : إنها تختلف باختلاف المزاج ؛ فمن
الناس من يرى أن من حق العلا عليه أن يطعمَ الجائع ، ويكسو العارى ،
ويروى الظمآن ، ويعلم الجاهل ، ويعين المريض على التماس الطب لعلته .
ومن الناس من يرى أن من حق العلا عليه أن يغشى حانات اللهو ،
وأندية القمار . وهؤلاء أحرى أن يكثرُوا ، وأجدر أن يظفروا من العلا بما
يريدون .

رقى

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : ألم تكن نلقن فى نضرة الصبا أن من

طلب العلا سهر الليالى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : ذلك حين تكون العلا غالية بعيدة المنال

فأما حين ترخص فإنها تنال بأيسر من سهر الليالى .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما ذلك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إسداء الثناء إلى غير الأكفياء ، وإهداء الهجاء إلى ذوى الغناء ، وقذفُ المحصّنات والخوض في الأعراض بغير الحق ، وجفوة الصديق ، وخيانة الخليل .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وترى ذلك ثمناً يسيراً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أيسر من الرمل على ساحل البحر ، ومن الماء على شاطئ النيل .

تعريض

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلام أراد المتنبى حين قال :

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ

فَقِي النَّاسِ بُوقَاتُهَا وَطُبُولُ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما أراد إلى أن « سيف الدولة » كان

خليقاً باسمه ؛ لأنه كان يحمي ثغور المسلمين من عدوان الروم ، على حين كان قوم آخرون في بغداد يتكثرون بما لا غناء فيه ولا طائل تحته : من هذه المواكب الفخمة التي كانت تزخر بها عاصمة الخلافة .

ضحك

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يغيبك قول المتنبى فينا :

• يَا أُمَّةَ ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ •

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي . وما يغيظني من ذلك ؟ ! أسخط كافر
المتنبى ، فقال شر ما علم ، وأرضاه فقال خير ما علم . وصدق رسول الله .
« إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَسِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لَحِكْمًا »

ضحك

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أحق أن الأثم ضحك من جهلنا قديماً
كما يقول المتنبى ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كما ضحكنا وكما لا نزال نضحك من
جهل أثم غيرنا .

انتصار

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما الذى يعجب الناس من قول المتنبى :
وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَّانُ بِأَرْضِ
طَلَبَ الطَّغْنِ وَخُدَهُ وَالتَّرَالَ
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يعجبهم منه يا بني أنه يعرض صورة
رائعة في دقتها وصدقها وإيجازها لحقيقة إنسانية خالدة ، وهى أن شجاعة
كثير من الشجعان ، وانتصار كثير من المنتصرين ، وتفوق كثير من
المتفوقين ليست إلا تكثراً وغروراً . فإذا جاء الخوف قلَّ الشجاع وندر
الانتصار ، وأصبح التفوق أمنية لا تنال إلا في عسر شديد . وليتك تقرأ

قصة « دون كيشوت » للكاتب الإسباني « سرفنتس » ، أو قصة « تارتاران
 دى ترسكون » للكاتب الفرنسى « ألفونس دوديه » لتعلم أن هذين الكاتبين
 العظيمين لم يزيدا على أن شرحا قول المتنبي :
 وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَّانُ بِأَرْضٍ
 طَلَبَ الطَّغْنَ وَخَدَهُ وَالتَّرَالَ

ذوق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس مما يعجب ويروق أن تعزفَ
 موسيقى « موزار » و « بهوفن » ترويحاً للرفق بالحيوان ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وأى غرابة فى ذلك وموسيقى « موزار »
 و « بهوفن » تعزف ترويحاً للرفق بالبائسين من الناس ! وهل تختلف طبيعة
 البؤس حين يلمّ بالإنسان أو بالحيوان ؟
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى أرى فى هذا العطف رفعا للحيوان
 إلى منزلة الإنسان .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وأنا أرى فيه نزولاً بالإنسان إلى مرتبة
 الحيوان . ومدار الأمر كله على الذوق .

رفق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحت أرأف بالحيوان من أبي العلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ماذا تقول ؟ ! أتراها حرمت ذبحه وأكله ، وحفظت اللبن على البقر والشاة ، والبيض على الدجاج ، والعسل على النحل ؟ !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا ! ولكنها أذنت فأقيمت ليلة موسيقية ساهرة لمعونة الذين يرفقون بالحيوان .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو خير الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص .

إيثار

قال بعض الولاة لبعض جلسائه : أبغني رجل صدق أركن إليه فيما يعني من الأمر .

قال الوال : وأين أنت - أصلحك الله - من فلان ؟ ! فإنه رجل صدق ، ورجل حزم ، ورجل عزم ، ورجل عدل .

قال الوال : عد عنه ؛ فإنني أوثر به نفسي ، وأركن إليه في خاصة أمري . وبلغ الحديث فلاناً هذا ، فقال :

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أُذْعَى لَهَا

وَإِذَا يُحَاسُّ الْحَيُّسُ يُدْعَى جُنْدُبُ

وكان معه صديق فقال : إلى أى حد يستقيم للوالى أن يؤثر نفسه بك من

دون المدينة ؟

قال فلان : أليس فى صلاحه صلاح المدينة !!

نفع

قال أحد الأدباء لأحد أصحابه : لقد قطع فلان أسباب المودة بينه وبين

ذوى معرفته جميعاً إلا واحداً منهم .

قال له صاحبه : لعله ينتظر منه نفعاً ، فهو يستبقه حتى يبلغ آخر ما عنده ،

ثم يلحقه بغيره من الناس .

كفاية

قال أحد الوزراء لبعض ثقائه : إني أريد أن أؤلى فلاناً بعض العمل .

قال له صاحبه : نعم ! بشرط أن تمسكه عندك وتبيح له أن يستخلف على

عمله من يستطيع أن ينهض به .

قال الوزير : وكيف كان ذلك ؟

قال جلسيه : لأن فلاناً يحسن الانتفاع ، ولا يحسن النفع .

رق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تفسر هذا الصراع الذى نحن فيه منذ أعوام طويلة ، والذى يفسد علينا أمورنا كلها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وماذا تريد أن أفسر لك ! إنه الصراع بين الحرية التى تريد أن يكون جنودها أبطالاً ، والمنفعة التى تريد أن يكون جنودها أرقاء .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ومن أجل ذلك قلّ أبطال الحرية وكثر طلاب المنفعة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو ذاك !

رسالة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تنبئنى عن كلمة « الرسالة » هذه التى يلوكها كل إنسان حين يريد أن يعبر عن المهمة ، فللكاتب رسالة ، وللشاعر رسالة ، وللعالم رسالة ، ولصاحب السياسة رسالة أيضاً وما أعرف أن اللغة تؤدى بكلمة « الرسالة » هذا المعنى الجديد ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذه كلمة أذاعها فى لغتنا الحديثة مزاجٌ من الجهل والغرور : الجهل باللغة العربية ، والغرور الذى يخيل إلى كل إنسان أنه نبي قد أرسله الله برسالة يعلم بها الناس شيئاً ، أو يحدث بها فى

الناس حدثاً . وإذا اجتمع الجهل والغرور على أمة ، دفعها إلى أكثر من الخطأ اللغوي واستعمال الألفاظ في غير مواضعها .

جحود

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في شعر « كاتول » اللاتيني :
« لا تعمل خيراً ، ولا تنتظر شكراً . فقد عمّ الجحود وأصبح الإحسان هباء !
ماذا أقول ! بل أصبح ثقلًا ومصدرًا للضعفة . لقد بلوت هذه التجربة المرة
حين رأيت أشد الناس حقداً على وبغضاً لي من كان يراني منذ حين مصدرَ
نعمته وحاميهِ الوحيد » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم تتغير أخلاق الناس منذ قال شاعرك
اللاتيني هذا الشعر ، ولكنه صاحبُ عاجلة لم يكن ينتظر من الآجلة شيئاً .
أما نحن فقد أدبنا الله أدباً آخر ، وقرأ إن شئت قوله عز وجل :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

استخارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لن أشهد محاضرة عامة بعد اليوم .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : حجباً محجوراً ، وما ذاك ؟
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : سمعت اليوم محاضرة لم أسمع قط أسخف

منها ، ورحت إلى بيتي ضيقاً بما سمعت . وأردت أن أخرج من هذا الضيق ، فلم أكد أنظر في أول كتاب وقعت عليه يدي ، وكان ديواناً لشاعر لاتيني ، حتى رأيته بصور ضيق نفسه بهذه القراءات الأدبية العامة التي كانت تمتلئ بها روما في عصره . فقلت : إن الله قد خار لي وأذنني بأن من الحق إضاعة الوقت في الاختلاف إلى المحاضرات .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان شاعرك اللاتيني هجاءً ، وكان يلتمس لنفسه المعاذير لما كان يطرق من فن الهجاء . فأما أنت فطالب علم تستطيع أن تختلف إلى المحاضرات جيداً ورديثها ، ممتازها وسخيفها ؛ فإنك واجدٌ فيها بعض الفائدة ، تجدها فيما تسمع من المحاضر أحياناً ، وفيما ترى من المستمعين دائماً .

معبد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لقد راقني ما أرى من سخرية الشاعر اللاتيني « جوفينال » حين يتحدث إلى المال بأن من حقه أن يقام له معبد كذلك المعابد التي أقيمت للسلم والشرف والفضيلة ؛ لأن المال يتفوق على هذه الخصال جميعاً . ما يمنع الناس أن يفكروا الآن في إقامة معبد للثراء ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أخشى ألا يجد الناس من الوقت ما يكفي لهذا التفكير فضلاً عن إقامة هذا المعبد ؛ فإني أرى الشعوب قد أخذت تكفر بالمال وتخرج على سلطان الثراء .

وصف

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كأنما كان الشاعر اللاتيني « جوفينال » يصور عصرنا حين تحدّث عن هذا الغنى الذى تطيب نفسه عن مائة ألف درهم ينفقها فى الميسر ، ويبخل بقميص يقي خادمه ألم البرد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما دام فى الأرض سادة يملكون مئات الألوف ، وخدم لا يملكون شيئاً ، وفرص للهو ينفق فيها المال ، فكل العصور واحدة وإن طال الزمن !

هجاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أى فنون الآداب أحق أن يزدهر وينفق فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أدرى ! ولكننا فى عصر انتقال أشد فنون الأدب له ملائمة فن الهجاء .

رقابة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا تعجبُ معى بقول الشاعر اللاتيني « جوفينال » :

« ما أرفقَ الرقابة بالغُرَبانِ وَأَعْنَفَهَا على الحمام ! »

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن شاعرك اللاتينى لم يرِدْ إلى رقابة المطبوعات ، وإنما أراد إلى رقابة الأخلاق . ومهما يرِدْ فهو صادقٌ كل الصدق .

خادم

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يدهشك ما قاله أحد الوزراء لبعض الصحفيين من أنه مستعد للعمل فى أى وزارة ، كأنه الخادم يكلفه سيده ما يشاء فيقبل غير متكره ولا متمنع ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما يدهشك من ذلك ! وإنما الوزير خادم الملك والشعب ، يضعانه حيث يشاءان ، ويكلفانه ما يحبان .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ولكن الوزير من زينة الدولة .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : والخادم الأنيق من زينة البيت .

وعود

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا يعجبك قول الشاعر اللاتينى
« كاتول » :

« إن خليلته تقسم له على أنها لن تحب أحداً سواه ولو تقرب إليها كبير الآلهة ، ولكنه يرى وعود الخيليات مكتوبة على أجنحة الريح المنطلقة فى الجو ، وعلى صفحات الموج الهائم فى البحر المحيط » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما يعجبني قول كعب بن زهير :
 وما تَمَسَّكَ بالوعد الذى وعدتُ
 إلا كما يُمَسِّكُ الماءُ الغرابيلُ
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأى وعود الرجال أشبه فى ذلك بوعود
 النساء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن
 الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم .

نزاهة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذه الصورة التى أراها عند
 الشاعر اللاتينى « جوفينال » حيث يقول :
 « ما أكثر ما تمتدحُ النزاهة ، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد » .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وقد مدحت النزاهة أثناء القرون منذ
 شاعرك اللاتينى ، ولم تمتدح قط فى عصر من العصور كما تمتدح فى هذه
 الأيام ، ولكنها على ذلك مقرورة ترتعد من البرد !

تخليط

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يخلط فى كتابه عن حياة
 النبى (صلى الله عليه وسلم) تخليطاً شديداً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عرض لما يحسنُ من الأمر ، وقال فيه بغير علم .

منفعة

كان يبغضه أشد البغض ، فأصبح يتهالك عليه أشد التهالك ، وكان فصيحاً كل الفصاحة في تعليل ما أظهر وأضمر من بغض ، وهو فصيح كل الفصاحة في تعليل ما يظهر من تهالك وحب ، وهو يصدق نفسه في الموقفين جميعاً . ولكن الناس لا يصدقونه ، وإنما يؤمنون بأنه أبغض للمنفعة وأحب للمنفعة ، وبأنى وحى النفوس يكذب النفوس أحياناً . والغريب في هذا كله أن الناس أعلم منه بدخيلة النفس وسرّ الضمير .

أخلاق

أقبلوا يواسون من صرف عنه الحكم ، وكانوا جماعةً ضخمة يكاد يتمتع فيها التنفس لولا أنها كانت تسمى أو تزحف تحت السماء في الهواء الطلق وقد اكتظت بها الشوارع والميادين ، ووقفت لها حركة المدينة . قال قائل لصاحبه : أليس فلان قد صرف عن الوزارة أو صرفت عنه الوزارة ، فما هذه الجماعة الضخمة ؟ وما هؤلاء الذين يسعون إليه اليوم وكانوا لا يرونه أمس ولن يروه غداً إلا نكثوا رءوسهم وغضوا أبصارهم ؟ قال صاحبه : صرف عنه الحكم اليوم وقد يرد إليه غداً ، وللناس آمال

لا يحبون أن تنقطع ، وليس كل الناس يحب رغبة أو رهبة ؛ فقد يكون منهم من يحب مخلصاً في الحب ، ومن يحامل أو يواسى مخلصاً في المجاملة أو المواساة .

قال ثالث : ومن الناس من يبغضك ولكنه يواسيك ؛ لأنه يريد أن يظهر لنفسه أن رجولته أكبر من البغض .

قال رابع : ومن الناس من لا يكبر في نفسه إلا إذا أظهر نفسه للناس كبيراً بعض الشيء .

قال خامس : عجبت للذين يشيعون الجنائز ويستطيعون أن يفكروا في شيء غير الموت .

كساد

قال أحد الصديقين لصديقه في بعض المحافل : ألا ترى إلى فلان يلحظ صديقه العزيز عليه ، الأثير عنده ، لحظاً خفياً ولا يحبه ؟ !
قال صاحبه : لأن رئيسه يرقبه من بعيد .

قال الصديق : وإذا ؟

قال صاحبه : وإذا فهو يثق من صديقه العزيز عليه ، الأثير عنده ، برحابة الصدر ، ويخاف من رئيسه ضيق الخلق .

قال الصديق : والشجاعة ؟

قال صاحبه : قد كسدت سوقها في هذه الأيام .

عفة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذا البيت الذى ينسب إلى
عنترة :

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي

أَغَشَى الْوَعْيَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنه لجميل حقاً ولا سيما حين ينشر في
هذه الأيام .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فى هذه الأيام ! كيف تقول ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أَلَسْتَ قَدْ تَعَلَّمْتَ فى المدارس والجامعة
أن الأشياء تمايز بأضدادها ، وأن شاعراً قديماً قد أنشد :
« وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ ؟ ! » .

ثعالب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما هذه النواطير التى قصد إليها المتنبي
فى بيته الوقع :

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا

فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ما زال الحق عندكم وقحاً وقائله مسرفاً

فى الجراءة . ولكن هذا لا يغير من الحق شيئاً ؛ فقد نامت نواطير مصر
عن ثعالبا ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البشم
فلا يزيدا إلا نهماً ، كأن بطونها تلك الآنية التى أشارت إليها الأساطير
اليونانية التى ليس إلى ملتها سبيل . فأما النواطير فسل المتنبي عما أراد بها .
أما أنا فأفهم منها الشعب ، وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو نام الشعب لما أكلت الثعالب ما يقيم
أودها فضلاً عن أن يضطرها إلى البشم . ما زال الشعب يكذب ويكذب ،
وما أعرف أن النائم يحسن كذاً أو كذاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فقل إن شئت إن الشعب يقظان نائم :
يقظان لأنه يعمل وينتج ، ونائم لأنه لا يحصى ثمار عمله من هذه الثعالب
التي تأكل منها حتى تبشم ، فلا يزيدا البشم إلا نهماً .

فرار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذى سمعتك تنشده حين
فرغت من صحف الصباح :
ترك الأحبة أن يُقاتل دُونهم

نجاً براس طيرة ولجام

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألم تتعلم فى المدارس الثانوية أنه من
شعر حسان يقوله فى الحارث بن هشام حين شهد بدرًا مع قريش ، فلما
دارت عليهم الدائرة فر وترك الأحبة صرعى لم يقاتل دُونهم وفيهم أخوه

أبو جهل عمرو بن هشام ! وانظر حولك فسترى الذين يفرّون عن الأحبة حين يجدّ الجدّ كثيرين ، يدفعهم إلى الفرار الرعب حيناً ، والرهب حيناً آخر .

كيد

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذى تكثر ترديده منذ اليوم :

وَكَيْتِيَّةٌ لَبَّسَتْهَا بِكَيْتِيَّةٍ
حَتَّى إِذَا التَّبَسْتُ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : هذا بيت قاله الفرار السلمى ، وكان رجلاً يغرى بالحرب ، حتى إذا شبّ نارها وأذكى أوارها ، لاذ بالفرار وتغنى ببراعته فى الأمرين جميعاً . وانظر حولك فسترى أن الذين يمكن أن تسميهم بالفرار السلمى كثيرون ، ولكنهم يفرّون ويفرّون ولا يتغنون . تبلدت قلوبهم فلا تحسّ ، وانعقدت ألسنتهم فلا تنطق ، وأشربت نفوسهم حب الكيد الصامت ، فهى تكيد ولكنها لا تقول .

كيد

قال الطالب الفقى لأستاذه الشيخ : ما تأويل قول الشاعر :

إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا
فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تأويله أن تارك الصلاة عمداً يعصى الله معصية واحدة ، وأن مقيم الصلاة كيداً يعصى الله معاصي كثيرة ؛ يريد أن يخدع الله والله لا يخدع . ويريد أن يخدع الناس ، وخداع الناس إثم . ويريد أن يتخذ الله وسيلة والله غاية الغايات ، وإليه تبتغي الوسائل . فكيف به إذا اتخذ الله وسيلةً لأعراض الدنيا وتضليل الناس ! صدق الشاعر :

إذا رامَ كيداً بالصلاة مُقيمها
فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

صفح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في بعض ما يقول « نيتشه » إن كثيراً من الناس لا ينبغي أن نصافحهم بيد رفيقة ، وإنما تبسط إليهم يد كبرئ الأسد ، وأريد أن تكون فيها مخالب حادة . فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هم أكثر الذين تلقاهم مصباحاً ومسياً ، فيلاحظونك بعيون ملوِّها الود ، ويسمون لك عن ثغور مشرقة رفيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك ولا سيما حين تحدثُ الأحداث وتلم الخطوب .

ولكن « نيتشه » يا بني صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

سخرية

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قرأت فيما قرأت من شعر « كاتول » مقطوعةً يهني فيها نفسه للموت ، بل يحثُ فيها نفسه على الموت ؛ لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رقيّا إلى منصب القنصل . فأعجبتني سخريته اللاذعة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كما أعجبتني قول الشاعر العربي :
 تَأْهَبُوا لِلْحَدَثِ النَّازِلِ
 قَدْ قُرِئَ الشَّعْرُ عَلَى كَامِلٍ

تقدير

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال الناس يضطربون للتولية والعزل في مصر أكثر مما يضطربون لها في البلاد الحرة الأخرى ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنهم لا يزالون قدماء العقل والشعور ، يرون في التولية نعمة وفي العزل نقمة ، ويذكرون نكبة البرامكة وما يشبهها من أحداث الدهر القديم . فانتظر بهم حتى يذوقوا طعم الديمقراطية الصحيحة ، فيومئذ سينظرون إلى التولية والعزل كما ينظرون إلى الجو والمطر .

ابتسام

قال الطالب الفقي لأستاذه الشيخ : أليس يعجبك قول المتنبي :
وَلَمَّا صَارُ وَدُّ النَّاسِ خِيًّا

جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقي : بلى ! إنه ليعجبني كل الإعجاب
ولا سيما حين ينشده الذين يصوِّرون الحبَّ بابتسامهم أكثر مما يصوِّرون
الودَّ الصحيح . وأكبر الظن أن المتنبي نفسه كان من هؤلاء حين قال
هذا البيت .

تملق

قال الطالب الفقي لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان قد كان أبعد الناس
عن التملق ، فلما تقدمت به السن جعل إمعانه فيه يزداد من يوم إلى
يوم ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقي : كأن يعتمد على نفسه ، ما واثقه قوة الشباب ،
فلما أدركه الشيخوخة اتخذ من التملق عصاً يدبَّ عليها .

كذب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يغيظك هذا الشاء الذى لا يصدقهُ قائلوه ، ولا سامعوه !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كلا يا بنى ! لأنى أعلم أن الناس أحرارُ فى أن يقيموا حياتهم على الكذب ، ونحن أحرارُ فى أن نعرف ذلك منهم أو ننكره عليهم .

مروءة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تحدثنى عما ألم بقوم كانوا كراماً أعزّة ينهون عن الضعة ، وينأون عن الصغار ، فلما أدركتهم الشيخوخة أقبلوا متهاكين ، على ما كانوا يكرهون ذكره من صفائر الأمور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إن تقدّم السنّ لا يضعف الجسم وحده ولكنه يضعف أيضاً العقول والنفوس والمروءة ، إلا قليل من الناس يكادرن يحصّون فى كلّ جيل .

نفاق

كلفَ عملاً لا يحسنه ولا يستطيع النهوض به ، يقصّر به عن ذلك عقله وسنه جميعاً ، ولكنه منع أجراً ضخماً ، ورفّع إلى مكان ممتاز ، فشك

غير طويل بين الأمانة التي تحرمه ما يعرضُ عليه من خير ، والخيانة التي ترضى طموحه إلى المال والامتياز ، ولكنها تضيق على الشعب حقوقه ومنافعه ؛ فآثر الثانية لأنه يحرص على إرضاء أهوائه وشهواته أكثر مما يحرص على إرضاء الحق وإيثار المنفعة العامة .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ومع ذلك فالناس يلقونه بالتجلة ويشتون عليه بالسنتهم وأقلامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! ولكنهم يزدرونه في نفوسهم ، ويمقتونه في ضمائرهم ، وتلعنه قلوبهم . وهل رأيت أمور الناس تدور على غير الكذب والنفاق !!

نفاق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : من عسى أن يكون هذا الرجل الذي يقول فيه خالد بن صفوان إنه ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : قد علمت أنه شبيب بن شيبه .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد والله علمت ذلك وكأني لم أحسن توجية السؤال ، فعلمني كيف يستطيع الرجل أن يضع نفسه بحيث لا يكون له صديق في السر ولا عدو في العلانية .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سبيل ذلك أن يملأ الرجل قلبه أثره صادقة لا تفارقه ، ويسبغ على وجهه ابتسامة كاذبة لا تفارقه ، فهو إن فعل ذلك لم يحب إلا نفسه في السر والعلانية ، ولم يبغضه الناس في ظاهر ما يكون بينهم وبينه من الصلة .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتظنّ ذلك يسيراً سهلاً ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! إن من النفاق ما هو أصعب
 احتمالاً على أصحابه من الصراحة .

نفاق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : متى يحسنُ رأيك في الناس ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : متى حسنَ رأى الناس في أنفسهم .
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم أفهم عنك .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو حسنَ رأى الناس في أنفسهم لما أقاموا
 حياتهم على النفاق .

حياء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أتعرفُ أبلغَ من هذا البيت أثراً في النفس :
 وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي وَهُوَ مَيّتٌ
 كما كنتُ أَسْتَحْيِيهِ وَهُوَ قَرِيبٌ
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! قول لبيد :
 ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
 وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجُلْدِ الْأَجْرَبِ
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني لا أفهم عنك ما تريد منذ اليوم !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن الذين كانوا يستحيون إخوانهم أمواتاً كما كانوا يستحيونهم وهم أحياء قد ماتوا ، كما يقول العامة الآن . وبقى بعدهم هذا الخلفُ الذى يشبهه لبيدٌ بجلد الأجرى والذى لا يستحي من حى ولا من ميت ، ولا يستحي من نفسه ولا من الله .

إشاعات

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد الشاعر القديم حين قال :
 يقولون أقوالاً ولا يعلمونها
 فإن قيل هاتوا حَقَّقُوا لم يُحَقِّقُوا
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد إلى مثل ما نغرق فيه بين حينٍ وحينٍ من الباطل المذاع ، والزور المشاع ، والبهتان الذى تفسدُ له الحياة العامة ، وتسوء له الصلات بين الناس ، وتقوم عليه مع ذلك أو من أجل ذلك أمور الأمة .

نهضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تقول فى شعب يجرى أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد بخطو سريع !

حقوق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا أدري ! وما أحسب أن الدنيا تصلح
أو أن أهلها يصلحون في يوم من الأيام . ولكن هناك مقداراً من الخير لا يستقيم
للناس بدونه أمر .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما ذاك ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألا تتخذ حقوقُ الشعب ومنافعه مطيةً
إلى قضاء المآرب وإرضاء الشهوات .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وهل إلى ذلك من سبيل ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! يوم يعرف الشعب حقوقه ومنافعه ،
ويبين لساسته وقادته أنه عليها حريص ولها مؤثر ، وأنه مستعد لأن يضحي
في سبيلها بما تضحي به الشعوب الكريمة في سبيل الاحتفاظ بالحقوق
والمنافع العامة .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هيهات !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : قد كنت أظن أن هذه الكلمة إنما تجرى
على السنة الشيوخ ، فأما السنة الشباب فتجرب عليها كلمات أخرى !

صدق

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: أَلَسْتُ. قد علمتنا صباح اليوم أن الخبرَ شيء
يحتمل الصدق والكذب دائماً ، وأن هناك مَرَجَحات تميل به إلى الصدق
حيناً وإلى الكذب حيناً آخر ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وما إعادتك في المساء لحديث جرى
في الصباح ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإنك قد نسيت مرجحاً يرتفع بالأخبار
إلى الصدق الذي لا شك فيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هو بطش الحاكم المستبد فيما مضى ،
وظروف الحرب في هذه الأيام . وما أذكرني ذلك إلا قول أبي العلاء .
جَلَوْا صَارَماً وَتَلَّوْا بَاطِلاً

وقالوا صَدَقْنَا ، فقلنا : نعم !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فإن صارم الحاكم المستبد وحكم الحرب
لا يصدّقان خبراً كاذباً ، ولا يكذبان خبراً صادقاً ؛ لأنهما يستطيعان أن
يراقبا القلم واللسان ، ولا يجدان سبيلاً إلى مراقبة النفوس والقلوب .

صلة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : يُروى عن عثمان - رحمه الله - أنه قال : « كان عمر يمنع أقرباه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتي لوجه الله ، ولن يرى مثلُ عمر » . فأى المذهبين أخرى أن يتبع ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لقد أنباك بذلك عثمان نفسه حين قال : « ولن يرى مثل عمر » . والأمر أظهر من أن يحتاج إلى تأويل ؛ فمن الخير أن يعطى الرجل أقرباه وأصدقاءه ومن لا يمت له بصلة ابتغاء وجه الله ، على أن يكون العطاء من ماله الخاص لا من مال الدولة ؛ لأن مال الدولة مواضع ينبغي أن ينفقَ فيها ، وليس من هذه المواضع إعطاء الأقرباء والأصدقاء .

ضعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال قوم تسمو بهم منازلهم وثقافتهم إلى الرفيع من الأمر فلا يأتون إلا ما فيه ضعة وتسفل وانحطاط ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أولئك قوم يتفوق فيهم سلطان الغرائز على سلطان الحضارة ، وقد خلقوا للضعة ، فلما حاولت الحضارة أن ترفعهم ثقلت عليها عقولهم وقلوبهم ونفوسهم وخفت أجسامهم ، فارتفعت هذه الأجسام إلى المقام الممتاز وظلت العقول والقلوب والنفوس حيث خلقت ،

تجذبها الحضارة إلى أعلى فلا تنجذب ، وتجذبها الغريزة إلى أسفل فتسمع وتطيع .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى أن الحياة الديمقراطية تتكشف عن كثير من هؤلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذلك أخرى أن يكون ؛ لأن الديمقراطية تلغى القيود وتيسر الظهور لما خفي من أمور الناس ، والارتفاع لمن حقه أن يظلّ وضيقاً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأنت مع ذلك تحب الديمقراطية وتؤثرها !!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! لأنّ حسناتها أكثر من سيئاتها ، ومنافعها أكثر من آثامها . والخير الخالص لم يتح للناس في هذه الحياة .

نكسة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان فلان أياً حمياً ذكياً مرتفعاً عما يؤذى كرامة الرجل الكريم ، فلما بلغ السبعين ابتذل من نفسه ما لم يكن للابتذال سبيل إليه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ردّته السّن إلى طفولة العقل ، وحفظت عليه رجولة الجسم ، فأدركه شيء يشبه النكسة .

تحكم

فَرَّقَ أصحابه للسطو ، وضرب لهم موعداً لاقتسام الغنيمة ، فجاءه بعضهم بألف ، وجاءه بعضهم بخمسمائة ، وجاءه بعضهم بأكثر من ذلك وأقل .

فلما أراد القسمة زعم صاحب المائة أن حظه يجب ألا يقل عن حظ صاحب الألف . وهم القوم أن يجادلوه ، فاضطروهم إلى الصمت والإذعان ؛ لأنه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره إلى الشرطة .

ابتسام

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس يقال إن ابتسام الثغر آية على ابتسام النفس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وقد يقال إن ابتسام الثغر آية على عبوس النفس .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فقد رأيت على ثغر فلان ابتسامة لم أستطع لها تأويلاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : في ذلك الاجتماع الذي شهدته اليوم ، أو لم تسمع لما كان يقال ؟ أو لم ترَ إلى ما كان الناس يأتون من حركات ؟ قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : بلى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لقد كنت تستطيع أن تقرأ في تلك الابتسامة التي رأيتهـا على ثغر فلان استخفافه بكل ما كنت تسمع ، وبكل ما كنت ترى ؛ لأنه كله لم يكن يصور إلا الكذب ، والكذب الذى يريدہ أصحابه عن عمد ، وهم يعلمون أنهم يكذبون .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وهل تقوم هذه الاجتماعات إلا على هذا الكذب ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإذا رأيت فلاناً يتسم لها فاعلم أنه يستخف بها .

ضحك

قال أستاذ محنك وهو يتسم لأساتذة محنكين لم يكونوا أقل منه ابتساماً :
لقد تجاوزنا وقت الشك . . .

ولم يستطع أن يمضى فى الحديث لأنه أغرق فى الضحك .
قال الأساتذة المحنكون : نعم ! ووصلنا إلى اليقين القاطع . . .
ولم يستطيعوا أن يمضوا فى القول لأنهم شاركوا صاحبهم فى ضحكه الذى كان يفرق فيه .

وبال على صاحبى يسألنى : أضحكون من أنفسهم أم يضحكون من الناس ؟

ولم يستطع أن يمضى فى الحديث لأنه أغرق فى الضحك .
قلت لصاحبى : هم يضحكون من أنفسهم ومن الناس .

ولم أشارك صاحبي في ضحكته الخافت ، ولم أشارك القوم في ضحكهم
الصاخب ، وإنما لبثت باسماء أرى لهم جميعاً .

جلاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى مصر تتوسط في جلاء الفرنسيين
عن سوريا ولبنان !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا حسن ، وأحسن منه أن تتوسط
مصر في جلاء البريطانيين عن أرض الوطن .

توبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلام أراد صاحب هذا البيت :
أَلَا قُلْ لِأَصْحَابِ الْمَخَافِضِ أَهْمَلُوا
فقد تاب مما تعلمون يزيد
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذاك لص كان يسرق الإبل ، وكان
الناس يخافونه على أموالهم فيحتاطون لحراستها ؛ فهو يعلن إليهم أنه قد تاب
وأقصر عما يخافون ، وليس كل لص قادراً على التوبة .

توبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد صاحب هذا البيت :

وإِنَّ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا

تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا كَسَعِيدٍ

قال الأستاذ الشيخ للتلميذ الفتي : أراد إلى أن حمل النفس على التوبة

عن الإثم شيء عسير ، وإلى أن التوبة إن صحت فقبولها وردّها إلى الله .

فمن قارف الإثم أو تورط فيه ثم تاب وقبل الله توبته فهو السعيد .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وأنى له أن يعلم أن الله قبل توبته

أو ردّها ؟

قال الأستاذ الشيخ للتلميذ الفتي : سيعلم ذلك حين تعرّض عليه أعماله

يوم القيامة ؛ فهو إذاً لن يحقق هذه السعادة في الدار الأولى .

فن

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان ينسى دار التمثيل إذا

صرف عنه السلطان ، فإذا رُدَّ إليه ألح في زيارتها ؛ ولقد رأيته أمس وأول

من أمس وأول من أول من أمس ، فذكرت قول الشاعر القديم :

هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْهَوَى

وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرٌ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يحب أن يستمتع بالفن على ألا يؤدى لذلك ثمناً .

كساء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم يره أحد ، فإذا رد إلى السلطان رآه كل الناس .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يرى شخصه عورة لا ينبغي أن تظهر إلا أن تتخذ من السلطان كساء .

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان لم يسمعه أحد ، فإذا رد إلى السلطان أكثر القول حتى أمل الناس .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن له لساناً تطلقه التولية ، ويعقله العزل !

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر في الناس جميعاً ؛ فإذا رد إليه أطلق لسانه بالثناء على الناس جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يسخط فلا يقول إلا شراً ، ويرضى
فلا يقول إلا خيراً ، وقد حيل بينه وبين خير الأمور .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : خير الأمور ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألم تعلم أن خير الأمور أوساطها !

أعجوبة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يقول فلان في علوم اللغة وهو
أجهل الناس بها ، حتى استيقن أنه من أقدر الناس على التصرف فيها !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كأنما كان أبو العلاء يفكر فيه حين
قال :

هذا أبو القاسم أعجوبة
لكل من يذرى ولا يذرى
لا يقرض الشعر ولا يقرأ الـ
قمرآن وهو الشاعر المقرئ

تملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى إسراف « مارسيال » في تملق
مولاه قبصر حين زعم له أن خزائن الآلهة لا تكفى لمكافأته على ما قدم من
خير ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : رأى قيصر فخافه وطمع فيه ، ولم ير الآلهة فلم يحفل بهم . وأكبر الظن أن هذا الوثني الذكي كان يسخر من آلهته ومن قيصر جميعاً .

تملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى هذا الشاعر اللاتيني التراث « مارسيال » كيف يسخر من مصر وأهرامها ليشيد بهذا القصر الذى شاده قيصر ؟ ! ومع ذلك فقد مضى قيصر واندثر قصره ، وما زالت الأهرام باقية على الدهر .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن هذا الشاعر يابنى لم يسخر من الأهرام التى شادتها أيدي المصريين وحدها ، ولكنه سخر من الجبال التى شادتها يد الله ، وإن تملق القياصرة ليكلف الشعراء شططاً عظيماً .

نقمة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما اعتذر النابغة إلى النعمان !

فماذا جنى الشاعر أو ماذا نقم النعمان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : جنى الشاعر الجناية الكبرى ؛ فقد كان حراً شاكراً لنعمة أسداها إليه غير النعمان . ونقم النعمان من شاعره أنه لم يخلص له من دون الناس . ألم تقرأ قول النابغة :

ولكنني كنتُ امرأً لى جانبٍ
 من الأرض فيه مُستَراذٌ ومَذْهَبُ
 ملوكٍ وإخوانٍ إذا ما مَدَحَتْهُمْ
 أَحْكَمُ في أموالهم وأقربُ
 كصنيعك في قوم أراك اصطَفَيْتَهُمْ
 فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا !

عزة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أترى الحُلَفَاءَ يَفُونَ بِمِثَاقِ الأُطْلُنطى ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كما وَفَوْا بِمَبَادِئِ الرَّئِيسِ « ولسن » !
 قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا فالشعب الذى لا يرجو منْحاً
 ولا يَخْشَى منْعاً ، وإنما يَنْصَفُ نفسه وينصف من نفسه ، هو الشعب
 العزيز الكريم .

توحيد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس مما يَمَلَأُ القلوب غِبْطَةً والنفوسَ
 رضا أن نرى مصر تعمل على توحيد كلمة العرب ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وأدعى من ذلك إلى الغبطة والرضا
 أن توحد مصر كلمة أبنائها .

جبن

قال موظف كبير لبعض روائه السابقين : أحق أن يبأبك رَصَدًا يرقبون
المقبلين عليك والمنصرفين عنك ؟
قال الرئيس السابق : نعم ! أى رَصَد ! إنهم لا يغفلون عن طارق بالليل
أو زائر بالنهار .
قال الموظف الكبير : فاعذرني إن قصرت عن زيارتك .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعلم أن بباب فلان رَصَدًا أيقاظاً
أو نياماً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد فلان أن يريح صاحبه من مشقة
السعى إليه ، وأن يريح نفسه من لقاء الجبناء .

ملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال قوم من العلماء يتحسسون من
رأى الحكام فى العلم ليتخذوه لأنفسهم رأياً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم برضا
الحكام .

ملق

رأيت قوماً يأكل الملق مروءتهم ، كما تأكل النار الحطب ، وكما يأكل الحسد قلب الحسود .

نحو

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أُوْصِدَقِ النحويين وأصحاب اللغة أم أْصَدَقِ فلاناً مع أنه لا يقول في النحو واللغة إلا خطأ ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : صَدَقِ فلاناً لأنه نحوي لغوي بحكم القانون .

مثل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فسِّرْ لي هذا المثل العربي القديم :
« البس لكل حالة بُوسَهَا
إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بَوْسَهَا »
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : تريد تفسير الجدة أم تفسير الهزل ؟
قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أريد تفسير الجدة .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فكن حُرّاً كريماً إن أذنتُ لك نظم

الحكم أن تكون حراً كريماً ، ولكن عبداً ذليلاً إن اقتضتكم نظم الحياة أن تكون ذليلاً ، واتخذ لنفسك ثوبين : ثوب النعم تلبسه حين يؤذن في الناس بالحرية ، وثوب البؤس تلبسه حين يؤذن في الناس بالرق . وأى الثوبين لبست ، فكان عنه راضياً وبه مجبوراً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فإن أردت تفسير الهزل ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فكان رجلاً حراً كريماً لا تبطره النعمة ، ولا تغض منه النقمة . وإنك لتعلم أن الذين يحسنون الهزل قليلون .

مثل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يكن يقال في قديم الزمان : إن الناس على دين ملوكهم ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان ذلك يقال قبل أن تتحرر الشعوب ، فأما الآن فأحرى أن يقال إن الملوك على دين شعوبهم .

مثل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا يزال من الحق أن الناس على دين ملوكهم ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! وعلى دين رؤسائهم أيضاً في بعض البلاد .

مبدأ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يتملق حزبَ الكثرة وحزبَ القلة جميعاً ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتاجان إليه .

مبدأ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إلى أرى فلاناً يتملق البيئات : السياسية ، مهما اختلفت .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن الأيام دولٌ ، ولأن الأرض تدور .

زهد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يأخذنا بالقناعة ويحشم نفسه أهوال الجشع ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يؤثركم بالراحة ، ويشقّ على نفسه بالكدّ والجهد .

سلطان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : نقلَ إلى فلان أنك قلت فيه ما يؤذيه
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إِنَّ أَرْزَقَ السلطان فلن يؤذيه مني شيء
 مهما أفل فيه ، وإن أحرَمَ السلطانَ فسيؤذيه مني كل شيء .

وعظ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إن فلاناً لحكم القول ، أحمقُ السيرة .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأن لسانه يصنُّرُ عن عقله ، ولأن
 سيرته تصنُّرُ عن قلبه ، ولأن الأسباب بين عقله وقلبه مقطوعة لا سبيل
 إلى أن تتصل .

وعظ

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إن فلاناً ليأمرنا بالمعروف ويدعونا إلى
 الخير حتى نحبه ، وإنه مع ذلك ليمعن في الإثم ويتورط في الخطيئة
 حتى نبغضه .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أتيت له القدرة على أن يصدقكم ،
 ولم تتع له القدرة على أن يصدق نفسه .

وعظ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعرف أفصح من فلان إذا وعظ ،
ولا أعرف أبعد منه عن سيرة الرجل الكريم .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن بعض الفن نفاقٌ يبرعُ فيه صاحبه .
حتى يسحر الناس ، دون أن يكون بين هذا الفن وبين قلبه سبيل .

زهد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يبغيضُ فلانٌ إلى الناس
أعراض الدنيا ! وما أكثر ما يتهالك على أعراض الدنيا ! وما أجدره أن
يقول فلا يصدقَه أحد ، وأن يدعو فلا يستجيب له أحد ؛ لأن الناس
يرون مكانه من هذا التناقض .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما يدريك ! لعله يصدقُ في النصيح
للناس ، ويكذبُ في إغراء نفسه بالمال . خذ منه كلمة الحق ، وهبه
كالصيرفي المزيف تكثر عنده الدراهم والدنانير الزائفة ، ولكنه لا يعدم
درهماً جيداً أو ديناراً عيناً .

زهّد

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : لا أسمع من فلان إذا لقيته إلا النصيح
لى بالسّموا إلى الروح والنتزه عن المادّة ، ولا أقرأ له فصلاً إلا رأيتّه يحث
الناس على السّموا إلى الروح والنتزه عن المادّة ، وهو على ذلك غارقٌ فى
المادّة إلى أذنيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : ومن أجل ذلك أبغضَ المادّة الّتى توشك
أن تقتله ، فنصح للناس بالبراءة منها والنتزه عنها ؛ ولولا بغضه للثراء لما نصّح
لكم بالتجافى عنه .

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : وما يمنعُه أن يتجافى عن ثرائه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : يمنعُه من ذلك رجولته الّتى تفرض عليه
احتمال المحنة والصبر على العذاب إمعاناً فى طاعة الله عزّ وجلّ ؛ فالله يمتحن
الأغنياء بالغنى ، كما يمتحن الفقراء بالفقر .

رأفة

قال الطالب الفقى لأستاذة الشيخ : لو قسّم فلانٌ ريع ثروته على أهل قريته
لأغناهم ، ولظّل بعد ذلك أعظمهم ثراء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقى : هو أراف بأهل قريته من ذلك ،
فحسبه أن يحتمل وحده ثقل الثراء .

عطف

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ليسقيهم ماءً نقياً ل زاد عنهم المرض ، ولا استفاد زرعهم من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو أعطف عليهم من ذلك . ألم تعلم أن المرض محنة يثاب عليها المريض إن أحسن احتمالها ، وأن الصحة فتنة يعاقب عليها الصحيح إن أساء استعمالها ؛ فهو يؤثّر أهل قريته بالثواب ويعصمهم من الفتنة .

زهد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم أر أشد من فلان تزهداً للشباب في المال ، ولم أر أشد منه حرصاً على جمع المال .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما تنكر من ذلك ! إنه يؤدي إلى الشباب حقهم من النصيح الصادق ، وإلى نفسه حقها من الثراء العريض . قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فهلا نصح لنفسه بمثل ما ينصح به للناس !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ألم تقرأ بيت البردة :

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به

وما استقمتم فما قولي لك استقم

إنما الحق على الشباب أن يتلقوا كلمة الخير ولو من الشرير ، وكلمة
البر ولو من الفاجر ، وكلمة الزهد ولو من الشره المسرف في الطمع . لهم
خير ذلك ، وعلى من يكذب عليهم إثم ما يقترب من الكذب .

جاه

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أجدرنا أن نتمثل في كثير من الأحيان
بقول « مارسيال » لبعض أصحابه : « إن هذا الذي يعلن إليك المودة والحب
إنما يحب مائدتك المثقلة بالطيبات . ولو قد أثريت وأثقلت مائدتي بلذيذ
الألوان لأصبح لي صديقاً » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نعم ! ولا سيما إذا وضعنا الجاه مكان
المائدة ، ووضعنا المنافع العاجلة مكان ألوان الطعام . فما أكثر الذين
يغيرون أصدقاءهم بتغير الوزارات !

سؤال

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أحب أن نجيب عن هذا السؤال الذي
ألغاه « مارسيال » على بعض أصحابه مداعباً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ذاك أن فلاناً باع مزرعته واشترى بشمها
غلاماً حسناً ، وأن فلاناً باع غلامه واشترى بشمه مزرعة خصبة ، فأحدهما

يحب ، والآخر يزرع الأرض ، فأيهما أحسن حالاً ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كل ميسر لما خلق له .

قرض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال قوم يعمرن الحانات والمراقص ،
ويقترون السيئات والآثام ، فيشربون ويطربون ويلعبون ، ويريدون بذلك
كله إغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع ، وإعانة البائس المحروم ؟
قال أحد الحاضرين : أولئك قوم يحادون الله ويؤادون الشيطان .
قال الآخر : أولئك قوم يتخذون غضب الله القوى وسيلةً إلى رضا
الإنسان الضعيف .

قال ثالث : أولئك قوم يقرضون الله بالربا ، ولكنهم يتعجلون الفائدة
في الدنيا مخافة أن تضع عليهم في الآخرة .
قال رابع : أولئك قوم وثقوا بالحياة العاجلة فاغتتموا لذاتها وشكوا في
الحياة الآجلة فلم ينتظروها .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أولئك قوم يحسن أن تقرأوا فيهم إن
شتم قول الله عز وجل .

« أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » .

موسيقى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم يبلغنى أنك لا تأوى إلى غرفتك إذا تقدم الليل حتى تسمع ألحاناً من الموسيقى ، ففيم هذه العادة ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أغسل بها نفسى من أضرار الحياة الاجتماعية .

سعادة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أليس جميلاً قول «مارسيال» لأحد أصدقائه : إنه شقى بسعاده .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : بلى ! كما أن بعض الناس يسعدون بشقائهم .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : الحق أنى لم أفهم عنك ، كما أنى لم أفهم عن «مارسيال» وإنما تعجبني صيغتك ، كما تعجبني صيغته لما أرى فيهما من المطابقة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : الأمر أدنى إلى الجدل من المطابقة ؛ فالسعيد يشقى بسعاده لأنه يحتاج منها إلى أكثر مما ينال ، والشقى يسعد بشقائه لأنه يجد هذه اللذة البغيضة التى يشتهاها من الغيظ لنعمة الناعم ، وترّف المترّف ، والتى يمكن أن تسمى حسداً . ولكلا هذين الأمرين

اسم بغيضٌ في الأخلاق ؛ فشقاء السعيد بسعادته بطرٌ ، وسعادةُ الشقي
بشقاؤه حسدٌ .

عجز

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما تأويلُ هذا البيت من شعر الحماسة
فازجرَ حِمَارَكَ لا يَرْتَعُ بروضَتَنَا
إذا يُردُ وَيَقْدُ العَيْرُ مكروبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا مثلٌ أراد به الشاعر تصوير قدرته
على عقاب من يعتدى عليه . وما أكثر الحمير التي ترتع في رياض
الناس هذه الأيام ، فلا نجد من يردها ، أو يصدّها ، أو يملك لها
عقاباً .

زيارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان فلان يكثر من زيارة فلان
قبل أن يتنكر له السلطان ، فلما أعرضت عنه الدنيا أعرض معها .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا ! ولكنه يزوره وبطيل الإقامة عنده
إذا جن عليه الليل ، لأن آية النهار مبصرةٌ ؛ فإذا انصرف أنشد قول المتنبي
في بعض مدائحه لكافور :

أزورهم سَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأَنْتَ بِيَاضِ الصُّبْحِ يُغْرِ بِي

تاريخ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أتصدق أن التاريخ يعيد نفسه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أَصَدِّقُ ذلك ولا أكذبه ، ولكن !
لم تريد ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أريد أن التاريخ سخيْفٌ لا خيرَ فيه
إن كان يعيد نفسه ؛ لأن ذلك يدل على أنه لم يستطع للناس وعظاً ولا
إصلاحاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذنبُ التاريخ إذا كانت طبيعة
الناس لا تتعظ ولا تقبلُ الإصلاح ! فقلْ إن التاريخ سخيْفٌ ، كما أن
الموت سخيْفٌ ، لأن الموت يعيش بين الناس ولا يبلغ من نفوسهم موعظةً
ولا إصلاحاً .

نفوس

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تقول في هذا البيت الذي لا يسأم
الناس إنشاده من شعر المتنبي :

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَاراً

تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وماذا تريد أن أقول فيه ؟ إنما هو حكمة

من هذه الحكم التي يرسلها المتنبى فتطرد أحياناً ، وتقصر عن الاطراد أحياناً أخرى ، فمن كبار النفوس ما تتعب الأجسام ، ومنها ما لا يمس الأجسام بتعب قليل أو كثير .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فلو أن المتنبى وضع النفوس الصغار موضع النفوس الكبار ، فكيف كان يقول ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يقول :

وإذا كانت النفوس صغاراً

نَعِمَتْ في مُرَادِهَا الأجسام .

وكان ذلك أخرى أن يكون مطرداً مصيباً . والشئ الذي لاشك فيه هو أن المتنبى أخطأ الغرض الذي كان ينبغى أن يرمى إليه .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما عسى أن يكون هذا الغرض ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو أن كبار النفوس تحمل صغارها أعباء ثقلاً لأنها تسخرها لما تريد من عظيم الأمر ، وأن صغار النفوس تكلف كبارها آلاماً ممضة لأنها تقصر عن أن تبلغها من عظيم الأمر ما تريد .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذا ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذا ، فقد خلق الناس ليكون بعضهم

لبعض مصدر محنة وشقاء . وأصاب زياد حين قال :

« نَسَأَ اللهُ أَنْ يُعِينَ كُلًّا عَلَى كُلِّ »

صمت

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا تفسر لي هذا البيت الذي تكثر
إنشاده بين حين وحين :

ولو أن قومي أنطقني رماحهم
نطقْتُ ولكنَّ الرِّمَّاحَ أَجَرَّتْ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هذا بيتٌ رائع ، صور به عمرو بن
معدى كرب خيبة أمله في قومه حين لقوا عدوهم ثم فروا ولم يبلغوا منه شيئاً ،
وكان عمرو بن معدى كرب شاعر قومه ، فكان أحبَّ شيءٍ إليه أن يملأ
الأرض غناءً بمفاخرهم ومآثرهم . وأى شيء أشقَّ على الشاعر من أن يضطر
إلى الصمت !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وما تمثلك أنت بهذا البيت بين حين
وحين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أتظن أن الناس من حولنا يبلون البلاء
الحسن في كل مواطن الجلد ! !

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : هيهات !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فأنشد مثلي قول عمرو بن معدى كرب :
ولو أن قومي أنطقني رماحهم
نطقْتُ ولكنَّ الرِّمَّاحَ أَجَرَّتْ

ثقة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وَتَقَ فُلَانٌ بِأَصْدِقَائِهِ حِينَ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا جَدَّ الْجَدُّ أَخْلَفَتْ الْأَيَّامُ ظَنَّهُ ؛ فَهُوَ بِذَلِكَ شَقِيٌّ ، وَلَهُ مُحْزُونٌ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : فَاعْتَبِرْ أَنْتَ بِمُحْتَتِهِ فِي أَصْدِقَائِهِ ، وَأَقِمْ رَأْيَكَ فِي النَّاسِ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ الرَّائِعِ الْقَدِيمِ :
وَأِنْ حَدَّثَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ
عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكُذِّبْ

منى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : مَا أَحْسَنَ مَا تَمْنَى « مَارْسِيَال » ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وَمَاذَا تَمْنَى ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : « تَمْنَى ثَرَوْهً لَا تَكْسِبُ بِالْكَدِّ ، وَإِنَّمَا تَكْسِبُ بِالْمِيرَاثِ ، وَأَرْضاً لَا تَكْذِبُ أَمَلُ صَاحِبِهَا وَلَا عَمَلُهُ ، وَدَاراً عَامِرةً لَا تَحْبُو نَارَهَا ، وَرَاحَةً مِنَ الْخُصُومَةِ أَمَامَ الْقَضَاءِ ، وَقَلِيلاً مِنْ زِيَارَةِ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ ، وَنَفْساً هَادِئةً مُطْمَئِنَّةً ، وَجَسَماً يَجْمَعُ الْقُوَّةَ وَالصَّحَّةَ إِلَى الظَّرْفِ وَالنَّشَاطِ ، وَصِرَاحَةً قَوَامِهَا حَسَنُ الْأَدَبِ ، وَصَدِيقاً أَكْفَاءَ وَضِيفاً أَسْمَاحاً ، وَمَائِدَةً أُنِيقَةً فِي غَيْرِ تَكْلَفٍ ، وَلِيَالِي لَا سَكْرَ فِيهَا وَلَا هَمَّ ، وَزَوْجاً مُحْصَنَةً

لا تغرق في الحياء ، ونوماً يختصر ظلمة الليل ، واطمئناناً إلى الحال التي
هو عليها دون طموح إلى حال أخرى ، وأمناً من آخر الدنيا دون تعجل له .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان « مارسيال » أندلسي المنشأ ؛ ولقد
أحسن التمني ، ولكنه لم يسمع قول مواطنه العربي بعد موته بقر بن طوال :
وَإِذَا انْتَبَتْ نَحْوِي الْمُنَى لَأَنَّا هَا
وَقَفَ الزَّمَانُ لَهَا هُنَاكَ فَعَاقَهَا

نصح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : بين لي بعض ما يتعرض له الشباب من
موبقات النفس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك واليأس من نفسك فإنه يسقط الهمة ،
وإياك واليأس من وطنك فإنه يهدر الكرامة ، وإياك واليأس من روح الله
فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : زدني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك والرضا عن نفسك فإنه يضطرك
إلى الخمول ، وإياك والعجب فإنه يورطك في الحقد ، وإياك والغرور
فإنه يظهر للناس كلهم نقائصك كلها ولا يخفيها إلا عليك . واذكر دائماً قول المتنبي
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ

رأى غيره فيه ما لا يرى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : زدني .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إياك والعناء فى جمع المال فإنه خسة ، وإياك والحرص على كثر المال فإنه ذلة ، وإياك والإحجام عن بذل المال فى وجه الخير فإنه ضعة . وقرأ قول الله عز وجل :

« الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكَّى بِهَا جَبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُنْفِقُونَ » .

ذلة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يتعالى على مرؤسيه كأنه السيد العظيم ، ويتضاءل لرئيسه كأنه العبد الذليل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو ملك هذا الرجل أمر نفسه لما تعالى على قوم ولا تضاءل لآخرين ، وإنما هو رجل فقد نفسه فهو يلتمسها فى العلو الكاذب حيناً وفى التضاؤل الصادق حيناً آخر ، فهو عبد ذليل فى الحالين ، وإنما السيد الجدير بالسيادة هو الذى لا يطفى إن استغنى ، ولا يذل إن احتاج .

خسار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قوم أرسلوا أنفسهم على سجيئتها ، فأبرموا الأمر ، وأحكموا القضية ، ورضوا عن أنفسهم ، ورضى

الناس عنهم . ثم بدا لغيرهم فنقضوا ما أبرموا ، وفرقوا ما أحكموا ، وسخطوا على أنفسهم ، وسخط الناس عليهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أولئك قوم باعوا مروءتهم بثمان بخس دراهم معدودة أو دنائير معدودة . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

نفور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو لقيت مرة واحدة هؤلاء النفور فإنهم حراس على أن يروك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراك نسيت قول الشاعر القديم :

حىَّ الحمول بجانب الرمل
إذ لا يلائم شكلها شكلي

هجر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو رضيت عن فلان فإنه نادى على ما فرط منه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إليك عنى واذكر قول معن بن أوس :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكذب
إليه بوجه آخر الدهر تقبل

صد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان لج في هجر الناس
لا يفرق بين عدو وصديق .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : الغمرات ثم ينجليه . واذكر قول
البحترى :

لج هذا الحبيب في هجرانه
ومضى والصدود أكبر شأنه

روغان

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أعذب حديث فلان حين يقول ،
وما أقل غناءه حين يعمل .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

يُعْطِيكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً
وَيُرَوِّغُ مِنْكَ كَمَا يُرَوِّغُ الثَّلْبُ

أهبة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان أقبل متأهباً للحرب قد
أبدى ما يرهب من ظفر وناب .
جنة الشوك

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نسي أن لخصمه أظفاراً وأنياباً . واذكر قول الشاعر القديم :

جاء شقيقٌ عارضاً رموحه

إنَّ بنى عمك فيهم رماح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما جمع فلان حوله للحرب !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ، لن يكثر خصمه بمن جميع له .

واذكر بيت الحماسة :

ومن ربط الجحاش فإن فينا

قنا سلباً وأفراساً حسناً

نزاهة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد ضرب فلان أبرع المثل في الذود عن

نزاهة الحكم والتعفف عن فئاته ومنافعه العاجلة ، والحرص الاستقامة في القول والعمل ، وعلى نقاء اليد والقلب والضمير .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وعلى ثغره ابتسامة مرة حائرة لا تريد أن تستمر :

نعم ، بعد أن ملأ يديه بالمغانم والأسلاب .

تعفف

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان قد اتخذ لنفسه في هذه

الأيام مكان أبي ذر أيام عثمان فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،

ويغض الأثرة ، ويعجب الإيثار ، ويحذر من الأخذ من مال الدولة بغير الحق .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي وهو مطرق لا يكاد يرفع رأسه : لو بقى له مطعم لآثر الصمت .

تخرج

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما رأيت كالיום تخرجاً في تدبير أمور الدولة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تسمع إلى فلان يلح في ألا يتولى مناصب الدولة إلا القادرون عليها الناهضون بأعبائها الذين لا يمسون الوزراء من قريب أو من بعيد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي وهو يلوى وجهه ويرفع كفيه : بعد أن أرضى ذوى قرابته على حساب الدولة بما ليسوا له أهلاً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني لأرى فيك مرارة لم أعرفها منك قبل اليوم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إذا بلغ السيل الزبا ، وجاوز الحزام الطيين ، وتجاوز كل شيء قدره ، وكل إنسان غايته ، كان خليقاً بالرجل الحر الكريم أن يطلق حلالة اللسان ، وعذوبة النفس إلى غير رجعة .

بعد فوات الوقت

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو سمعت إلى فلان وهو يحذر من عواقب المحاباة لامتلأ قلبك به إعجاباً !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو قال ذلك أمس لصدقناه .

قصد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد خنقني العبرة حين سمعت فلاناً يأمر بالقصد في أموال الدولة ومناصبها .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صدق الله العظيم :
« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وهم التلميذ الفتى أن يراجع أستاذه فيما سمع منه .
ولكن الشيخ كان قد استوى ودخل في صلاة العصر ، فلم يسع لتلميذه إلا أن يستوى قائماً وراءه ويدخل فيما دخل فيه من الصلاة .

كرامة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما كان فلان يعتر بكرامته وما أسرع ما استجاب لما لا يلائم هذه الكرامة !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن من الكرامة ما يستجيب للمال
كما يستجيب الحديد للدعاء المغناطيس .

عزاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان قلب لصديقه القديم ظهر
المجن ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لم يجد عنده مطمعا فتعزى عن اليأس
بما ترى . وقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا ،
وإن لم يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ » .

مكر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يمكر برئيسه ويؤلب عليه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد أن يبلغ رضا رئيسه بالملق فلما أعياه
ذلك أزمع أن يبلغ غضب رئيسه بالكيد .
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتراه يبلغ من ذلك ما أراد .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات إلا أن يكون الرئيس عبداً مثله .

إهداء

قال أحد الكتاب لبعض قرائه : أى الأدب أحب إليك ؟ قال : الذى
يرد على صدق من إهداء نفسه . قال الكاتب : فإن كان هذا الصدق
بغضاً ؟

قال القارئ : إن كان بغضاً علمت أن الكتاب لم يسجل صوت نفسه
وإنما سجل صوت نفس أخرى ألتبسها فيمن حول من الناس .

إهداء

قال أحد الكتاب لبعض قرائه : أى الكتب أحب إليك : قال الذى
يعرض على صورة نفسه . قال الكاتب : فإن عرض عليك صورة
قبيحة ؟

قال القارئ : إذا أعلم أنه لم يرد إلى تصويرى ، وإنما أراد إلى تصوير
غيرى من الناس .

إهداء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أشد حبك للهجاء ، وما أكثر قراءتك
لما ينشأ فيه من شعر ونثر .

قال الصديق : لأننى أجد فى ذلك شفاء لبعض ما فى نفسى من ازدراء الناس .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أشد عكوفك على قراءة الهجاء .
قال الصديق : فإنك تعلم حرصى على أن أتبع مثالب الناس فالهجاء يعينى من ذلك على ما أريد .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : إنك لتكثر قراءة الهجاء .
قال الصديق : أتتبع بذلك عيوب نفسى حين ألتمسها فى نفوس الناس .

هجاء

قال أحد الأدباء لبعض أصدقائه : ما أكثر ما تنفى على هذا الكتاب الذى لا يشتمل إلا هجاء !
قال الصديق : فإنك تعلم أنه يلائم طبعى .

نقد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أى قرائك أحب إليك !
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا الذى يقرأ مخلصاً ، وينقد ناصحاً ،
 ويعلمن الرأى صريحاً ، لا يصانع فيه ، ولا يلتوى به .
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ومن لك بالقارئ الذى تجمع له هذه
 الخصاله ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هبه إحدى المنى التى يقول فيها الشاعر
 القديم :

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
 وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

هجاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما قال فلان للناس الخير
 فيما مضى ، وما أكثر ما يقول لهم من الشر الآن !
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سقاهم من أدبه صفواً وعفواً حتى انتهى
 بهم إلى قعر الدن فهو يسقيهم حثالة نفسه ، وأجلد بهم أن يعافوا ما يقدم
 إليهم من شراب .

هجاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : قد كان أدب فلان عذباً سائغاً ،
فأصبح مرا لا يطاق .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ما زال يحلب لهم ضرع الأدب حتى
استنفد لبنه ، فهو لا يحلب الآن إلا دماً .

رياضة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أى الرياضة أحب إليك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : المشى .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إنما أردت رياضة النفس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : دفعها إلى ما تكره وصدّها عما تحب ،
ذلك أحرى أن يعينى على احتمال مخالطة الأهل ، ومعاشرة الأصدقاء ،
ومعاملة الناس .

سيرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما خير سيرة يسيرها الرجل الحازم

في أبنائه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يكلؤهم بعنايته ، ويشملهم برعايته ، ويحوطهم بعطفه وحنانه ، ولا ينتظر منهم بعد ذلك إلا عقوباً . ذلك أجدر أن يسروه أحياناً ، ولا يسوءوه أبداً .

إهداء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أى المودة أجدر أن تبقى على حوادث الدهر ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذه هى التى تخلفها الأثرة لا الإيثار ، ولم تنشأها الحوادث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، ولم تتصل بالمنافع القريبة أو البعيدة . وإنما قامت على توافق العقول ، وتعاطف القلوب ، واستحييت أن يتحدث عنها أصحابها حين يلتقون .

تلون

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يبيض قوله مصباحاً ، ويسوده ممسياً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما تنكر من ذلك ! إنه يستعير بياض الصبح لأحد قوله ، وسواد الليل لقوله الآخر ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فأى لونه نصدق !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صدقهما جميعاً إن شئت وكذبهما جميعاً إن أحببت ، فهو صادق كاذب معاً ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد عدت إلى الإلغاز في حديثك وقد كنت تركه دهرأ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو صادق في قوله لأنه يلتمس منفعته بهما ، وهو كاذب في قوله لأنه لم يردّ بهما رضا الله ولا نصّح الناس .

تجارة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يستبيح لنفسه الكذب مصباحاً ومسياً كما يستبيح الماء الذى يشربه ، والهواء الذى يتنسمه ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنه يشتري بكذبه لذة السلطان ؟
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأى سلطان هذا الذى يشتري بالكذب ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سلطانٌ بخسٌ يشتري بثمانٍ بخس .

كذب

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أحب الكذب إلى فلان !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو أدبه الشعب حين كذب كذبه الأولى لما عاد إلى الكذب مرةً أخرى ؟

فرصة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى اضطراب أمور الناس منذ أبحر فلان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : غاب النسر فاستنسر البغاث أو كما تقول العامة : غاب السبع فلعبت الضباع .

مصانعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان همَّ أن يكون رجلاً ثم استكان ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذكر قول زهير :

وَمَنْ لَمْ يُصَانَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضْرَسَ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسَمٍ

فطرة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان لم يكد يزأر زئير الأسد حتى ماء مواء القط .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنه لم يولد أسداً ، وإنما وُلِدَ قطاً .

مهارة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يكّد فلان يغيب حتى اضطرب كل شيء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أمر دُبر بليل .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أوضّحُ فإني لم أفهم عنك !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أراد أن تظهر الحاجة إليه فيصعب الاستغناء عنه .

طموح

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يؤلب على الحكومة وهو لها صديق .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ملّ مكان الصديق وطمع في مكان الزميل .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وتراه يبلغ ما يريد !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ولم لا ؟ ! إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

طمع

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما بال فلان لا يربح ولا يستريح ؟
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ملا خزائنه من المال ويريد أن يملأ
 يديه من السلطان .

عداء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يصبح إخوانه بالعداء
 كلما أشرقت الشمس .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم ينصفوه لأنهم لم يخلطوه بأنفسهم .
 واذكر إن شئت قول الشاعر القديم :
 إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
 على طرف الهجران إن كان يعقل
 ويركب حد السيف من أن تضيمه
 إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

رقص

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يكد فلان يدبر حتى أقبل .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم ينس الرقص الذي تعلمه في باريس .

تقلب

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يتقلب فلان بين الرضا والغضب !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أَلَحَّ عليه قول البحري :
أَغْتَدَى راضياً وقد بَتَّ غَضَباً
ن وأَمْسَى مَوْلٍ وأَصْبَحَ عَبْدًا

سرعة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يكد فلان يغضب حتى رضى .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ذكر قول بشار :
صَدَّتْ بِخَدِّ وَجَلَتْ عَنْ خَدِّ
ثُمَّ انْثَنَتْ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ

تجنى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يتجنى فلان على أصدقائه فيؤذيهم ويؤذي نفسه !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أسرفوا في الشاء عليه فظن أنهم صادقون .
واذكر إن شئت قول شوقي :
خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءَ ، وَالغَوَانِي يَغْرِهْنَ الشَّاءَ

أقول

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى ذلك النجم لم يكد يشرق حتى أفل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يستمد النور من غيره فلما التوى عنه مصدر النور عاد إلى إظلامه القديم .

جزاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : رأيت كأني أودع الأرض بذراً طيباً فلا يكاد يستقر فيها حتى ينبت منظراً بغيضاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : تحسن إلى قوم ثم لا تلقى منهم إلا شراً .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : وإذن !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : وإذن فاعمل الخير واذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

كفر

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : أي الناس أجدر أن يكفر النعمة ويحسد المعروف .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذلك الذى يجعل رأسه وعاء للعلم دون أن يجد نور المعرفة إلى قلبه سبيلاً .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم أفهم عنك !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن مثل العلم الذى تعيه العقول ولا تستضىء به القلوب مثل الأسفار التى يحملها الحمار . وقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

تذكار

أملت فحيت ، ثم قامت فودعت

فلما همت أن تنصرف ألفت فى يدي شيئاً صغيراً ، وتولت وهى تقول :
اجعل هذا وقاء لك من شر من تحسن إليه .
ونظرت فإذا هو مصحف دقيق .

لك العهد يا بنتى ألا يفارقنى مصحفك هذا الدقيق حياً وميتاً ، ولك
العهد ألا أتخذة وقاء من أحد ، ولا وقاء من شيء ، وإنما أحمله لأن حملة
محبب إلى .

بطر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى قوم يمكرون برئيسهم ،
ويطلقون فيه ألسنتهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ستموا النعمة واشتاقوا إلى النعمة .
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى رئيسهم يذيقهم من الشر ما يريدون .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ، واذكر قوماً جعلهم الله عبرة
 لأولى الأبصار ، لأنهم خربوا بيوتهم بأيديهم .

فتنة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان يبر بذوى رحمه على
 حساب الدولة .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نجم يريد الأفول وما أراه يأفل حتى تأفل
 معه نجوم أخرى .
 قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإن النجوم الأخرى ماضية في سبيلها
 لم تنحرف عن الجادة .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فاقراً إن شئت قول الله عز وجل :
 « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وعد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما زال فلان يعدنى ويعينى حتى ظننت
 أنه سيعطينى القمر . فلما حان وقت الوفاء لم أجد عنده إلا سراباً .
 قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا تلمه وقد أعطاك ما يملك وهو لا يملك

إلا الوعد ، ولكن لم نفسك على تصديقه . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« يعدم ويمنيهم ، وما يعدم الشيطان إلا غروراً » .

عبء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يجلب فلان لزملائه منذ شاركهم
إلا شراً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو كما قال الله عز وجل : « كُلُّ
على مولاه أينا يوجهه لا يأتي بخير » .

وقاء

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما حرص زملاء فلان عليه وهو يكلفهم
من الشطط ما لا يطيقون .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما يتقون به عين الحنود .

تعالى

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان ثاني عطفه شامخاً
بأنفه لا يكلم الناس إلا وحيأ ، ولا ينظر إليهم إلا شذراً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : أنف في السماء واست في الماء .

إصلاح

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما يذكر قومنا الإصلاح وما أقل ما يصلحون !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ولو قد آمنت قلوبهم بالإصلاح حقاً لعملوا أكثر مما يقولون .

نور

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما ينتقص الناس فلاناً دون أن يبلغوا منه شيئاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نوره وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

ثبات

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أكثر ما تألب الناس على فلان فهاجمونه جهرة ، وكادوا له سرّاً ، وأغروا به ألسنتهم وأقلامهم ، وهو ثابت في مكانه لا يزول !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما مثلهم ومثله قول الشاعر القديم :

كَنَاطِطِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا فَلَمْ يَضُرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

لوم

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما رأيتك تذكر قومنا إلا لائماً لهم ناعياً عليهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي :
وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَا حُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَتْ

سخط

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : متى ترضى عن قومك !
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : حين أراهم يسخطون على أنفسهم .

عقل

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قومنا قد قلبوا لقاداتهم وزعمائهم
ظهر المجن .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لأنهم أخذوا يعقلون .

تبصر

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى قومنا لا ينقادون لسااستهم
في يسر كعهدهم منذ حين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : جعلوا يصبحون رجالا .

إخلاص

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : متى يخلص الساسة في خدمة الشعب .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : حين ينسون أنفسهم .

حسد

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألا ترى إلى فلان ما ينفك يثير الصعاب ،
ويبث العقاب بين يدي زملائه العاملين ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم ييسره الله للخير ، فهو يأبى أن يجري
الله الخير على يدي غيره .

زهو

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لم يصنع فلان شيئاً منذ ارتقى إلى منصبه ،
وهو أكثر الناس حديثاً عن نفسه مصباحاً وممسياً .
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : إنما هو كما قال أبو العلاء في بعض معاصريه :
« رَحاً تطحن قرونا »

رقص

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى الذين يكتبون مذكراتهم
السياسية ويضيفون فيها إلى الموق من الأقوال والأعمال ما يمتنعهم الموت من

أن ينكروه أو يجادلوا فيه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هؤلاء القوم يستحبون الرقص على جثث الموتى ، فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتى يومهم الذى يوعدون .

صدقة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإنى أقرأ فى كتاب الله هذه الآية البارعة الرائعة بما فيها من هذا التمثيل القريب البعيد : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم » فهلا أظهرتنى على ما وراء هذا الجمال الفنى الرفيع من أمر الذين ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن الرواة يتحدثون بأنها أنزلت بشأن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ندب النبي أصحابه للجهاد بأموالهم وأنفسهم فى غزوة (تبوك) فأما أحد هذين الرجلين فهو عبد الرحمن بن عوف رحمه الله . قسم ماله نصفين أمسك النصف على نفسه وأهله وأقبل بالنصف الآخر على النبي صلى الله عليه وسلم فأقرضه الله قرضاً حسناً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت . وأما الآخر فعثمان بن عفان رضى الله عنه جهز للحرب من لاجهاز له من فقراء المسلمين فأنزل الله هذه الآية ، ينبئ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله عن نية خالصة وعزيمة صادقة وبراءة من المن والأذى بأنه يضاعف لهم نفقاتهم فيما يمنحهم من ثواب الآخرة أضعافاً كثيرة كهذه

الحبة التي تلقى في الأرض فتنتب سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة .
وكل واحدة من هذا الحب قد تلقى في الأرض فتنتب سبع سنابل في كل
سنبله مائة حبة ، والله يضاعف الخير لمن يشاء ، تسع قدرته ورحمته
ذلك والله يرزق الناس من نعم الدنيا وثواب الآخرة إن أراد بغير
حساب .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو صدق الموسرون وعد الله وخافوا وعيده
لآثروا إقراض الله على إقراض الناس .

قال الأستاذ الشيخ للتلميذ الفتي : فإنهم يرون بعيونهم ويأخذون بأيديهم
ويحرزون في خزائهم ما تغل عليهم قروضهم في المصارف وفي أسواق المال
ويمنعهم ضعف النفوس وخور القلوب وهذا الشك الذي يفسد العقول
أن يروا ما أعد الله للمحسنين من ثواب . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل :
« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم
بصلاتها مذموماً مذحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان
عطاء ربك محظوراً » .

صدقة

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في كتاب الله هذه الآية الكريمة
التي تروع بما فيها من الإيجاز والصفاء : « ويسألونك ماذا ينفقون قل
العفو . . . » فهل فسرته لي وفقهني في معناها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن الناس كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما ينبغي أن ينفقوا من أموالهم براً بالباشرين ومعونة للمحتاجين . فأنبأهم الله بأن فيما زاد على حاجاتهم وحاجات من يعولون من الأهل والولد سعة لهذا البر ومادة لهذه المعونة وإنما أراد إلى تأديبهم بما ينبغي أن ينعوا به حق أنفسهم وحق ذوى قرباهم وحق نظرائهم من الناس . وأراد قبل كل شيء أن يحملهم على الرفق بأنفسهم وبمن يعولون وكانوا قد تأثروا بالدعوة الإسلامية واندفعوا إلى البر وأقبلوا عليه حتى هم كثير منهم أن يشقوا على أنفسهم ويقتروا على أبنائهم وأزواجهم فدعاهم الله ورسوله إلى أن ينعوا حقوقهم أولاً وحقوق غيرهم من الناس بعد ذلك . وقد أقبل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال له : عندى دينار . قال : أنفقه على نفسك . قال الرجل : عندى غيره . قال : أنفقه على أهلك . قال الرجل : عندى غيره . قال : أنفقه على ولدك . قال الرجل : عندى غيره . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فأنت أبصر . لم يأمره أن يتصدق به ، ولم ينه عن هذه الصدقة وإنما ترك له أن ينفقه عن بصيرة في أمر دينه ودنياه . وأقبل رجل آخر ذات يوم على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه بيضة من ذهب أصابها في بعض المعادن . قال : خذها منى صدقة فقد أصبحت لا أملك غيرها فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الرجل من ركنه الأيمن فأعاد عليه القول فأعرض عنه النبي مرة ثانية ، وأعاد الرجل القول فأعرض عنه النبي مرة ثالثة . وأعاد الرجل القول للمرة الرابعة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم في لهجة المغضب : هاتها . فلما دفعها الرجل إليه حذفه بها حذفاً لو أصابه لشجته ثم قال : « يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ثم

يجلس يتكفف الناس» .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذن يكفكف من غلو أصحابه في الصدقة ويخفف من إمعانهم في البر وإجهادهم لأنفسهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : كان يرفق بهم لأنهم لم يكونوا يرفقون بأنفسهم .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : فأين نحن من أولئك الناس ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : نحن في منزلة التي لا يرفق الرجل فيها بنفسه ولا بأهله ولا بولده ولا بغيرهم من الناس لأنه يؤثر المال على الرفق والبر والإحسان جميعاً ، وصدق الله العظيم حين قال : « زُينَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو صدق الناس وعده الله وخافوا وعيله لما آثروا متاع الدنيا على متاع الآخرة ولما كثروا الذهب والفضة في خزائهم أكداً والناس من حولهم يصومون ثم لا يجدون ما يخرجون به من الصوم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : هو ذاك ، وقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » .

فهرس

صفحة		صفحة	
٣٨	معارضة	٧	نقلمة
٣٩	وصف	٢١	دعاء
٣٩	عقوبى	٢١	فيض
٤٠	فن	٢٢	حرية
٤١	خصام	٢٣	حرية
٤٢	موعظة	٢٣	أدب
٤٢	تجن	٢٤	حرية
٤٣	نعمة مضيمة	٢٤	وصول
٤٤	غرور	٢٥	ضمائر
٤٥	غرور	٢٧	جحد
٤٦	وجوم	٢٨	حمارا رهان
٤٧	تفليل	٢٩	حلة
٤٧	قطط	٢٩	وقار
٤٨	قصور	٣٠	ذاكرة
٤٨	نكریم	٣١	إخاء
٤٨	غیه	٣٢	إخاء
٤٩	ظلم	٣٣	إخاء
٥٠	رجوع	٣٤	إخوان
٥٠	رعية	٣٥	ذوق
٥٢	رعية	٣٦	معارضة
٥٢	رمز	٣٧	معارضة
٥٣	غيرة	٣٨	معارضة

صفحة		صفحة	
٧٠	منفعة	٥٣	مجنون
٧٠	أخلاق	٥٤	تلطف
٧١	كساد	٥٤	هجرة
٧٢	عفة	٥٥	هجرة
٧٢	ثعالب	٥٦	تصوير
٧٣	فرار	٥٧	رقى
٧٤	كيد	٥٨	رقى
٧٥	صفح	٥٩	تعريض
٧٦	سخرية	٥٩	ضحك
٧٦	تقدير	٦٠	انتصار
٧٧	ابتسام	٦١	ذوق
٧٧	تملق	٦٢	رفق
٧٨	كذب	٦٢	إيثار
٧٨	مروءة	٦٣	نفع
٧٨	نفاق	٦٣	كفاية
٧٩	نفاق	٦٤	رقى
٨٠	نفاق	٦٤	رسالة
٨٠	حياء	٦٥	جحد
٨١	إشاعات	٦٥	استخارة
٨١	نهضة	٦٦	معبد
٨٢	حقوق	٦٧	وصف
٨٣	صدق	٦٧	هجاء
٨٤	صلة	٦٧	رقابة
٨٤	ضعة	٦٨	خادم
٨٥	نكسة	٦٨	وعود
٨٦	تحكم	٦٩	نزاهة
٨٦	ابتسام	٦٩	تخليط

صفحة	صفحة
١٠٢	ضحك ٨٧
١٠٢	جللاء ٨٨
١٠٣	توبة ٨٨
١٠٤	توبة ٨٩
١٠٤	فن ٨٩
١٠٥	كساء ٩٠
١٠٥	فصاحة ٩٠
١٠٦	فصاحة ٩٠
١٠٦	أعجوبة ٩١
١٠٨	تملق ٩١
١٠٩	نقمة ٩٢
١٠٩	عزة ٩٣
١١٠	توحيد ٩٣
١١١	جبن ٩٤
١١١	ملق ٩٤
١١٢	نحر ٩٥
١١٢	مثل ٩٥
١١٣	مثل ٩٦
١١٣	مبدأ ٩٧
١١٣	مبدأ ٩٧
١١٤	زهدي ٩٧
١١٤	سلطان ٩٨
١١٥	وعظ ٩٨
١١٦	زهدي ٩٩
١١٦	رافة ١٠٠
١١٦	عطف ١٠١
١١٧	زهدي ١٠١

صفحة	صفحة
١٢٧	١١٧
١٢٨	١١٨
١٢٨	١١٨
١٢٨	١١٩
١٢٩	١١٩
١٢٩	١٢٠
١٣٠	١٢٠
١٣٠	١٢١
١٣١	١٢١
١٣١	١٢١
١٣١	١٢٢
١٣٢	١٢٢
١٣٢	١٢٣
١٣٢	١٢٣
١٣٣	١٢٤
١٣٣	١٢٤
١٣٣	١٢٤
١٣٤	١٢٥
١٣٤	١٢٥
١٣٤	١٢٦
١٣٤	١٢٦
١٣٥	١٢٦
١٣٥	١٢٧
١٣٧	١٢٧

رقم الايداع	٢٠١٣ / ٢٢٦٦٧
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7916-8

١ / ٢٠١٣ / ١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)